شجن

اسم الكتاب	:	شجن
النوع	:	رواية
تأليف	:	غادة أكرم
الطبعة	:	الأولى
إصدار	:	٢٠٢١
تصميم الغلاف	:	بسمة مجدي
التصحيح اللغوي	:	منى محمد علي الدين
الإخراج الفني	:	هند محمود
رقم الإيداع	:	2021/2067
الترقيم الدولي (ISBN)	:	978-977-994-003-8

كيانك للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية، القاهرة

مدير النشر: دكتور/ محمد أبو زيد

+20 114 240 2108

kayankpublishing@gmail.com

ببلومانيا للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية، القاهرة

مدير النشر: محمد جلال

+20 121 082 6415

www.bbibliomania.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية،

يُعرِّض صاحبه للمساءلة القانونية.

أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

رواية

شجن

غادة أكرم

إهداء

إلى كل روح مثابرة ذات عزم رأت طريق الحياة
وعقباته، لكنها رغم ذلك لم تلين ولم تهن، بل
توشحت بالإصرار ولم تزدها كل عقبة إلا تصميما
أكبر على المضي قدما.
أهديك هذه الرواية علّها تكون استراحة محارب
تكمل الطريق بعدها بهمة ونشاط.

إهداء خاص

إلى أمي أشجع روح مثابرة عرفتها.
إلى أسرتي الصغيرة، زوجي الغالي، وأبنائي.
إلى الأقارب والرفيقات وكل من وضع بصمة
في طريقي، وهم كثر بفضل الله لا حرمني الله
منكم جميعا.

شكر خاص

د. آلاء ياسر

د. عيدة ثابت

م. إيناس سمير

أ. منى علوي

كنتم خير رفقة بصحبة حروف تلك الرواية،

بدعمكن ونصائحكن الثمينة فشكرا لكن.

لقطة (١)

دعونا نكون صرحاء؛ تبدو أي مشكلة سهلة حين نسمع عنها، لكننا مازلنا نقبع داخل بقعة الراحة والاستقرار ما لم تمسنا بشكل شخصي، نملك حينها الكثير من الحلول ومزيد من الأفكار حول حلها.

يمكننا الثرثرة بكلمات عن ما يجب فعله، وما يجب تجنبه، بل حتى حول ما أخطأ فيه صاحبه؛ فأدى به الأمر لكثير من الأخطاء، تلك الأخطاء التي كانت عاقبتها الوقوع في تلك الورطة!

يرقد بين كفينا كوب قهوة يمدنا بالدفء، وقد ارتاح جسدنا على أريكة الاطمئنان الوثيرة نراها -تلك المشكلة- كلقطةٍ حبسها المصور داخل إطار محدد.

قد ندرك أو لا ندرك الكثير من الحقائق والوقائع؛ بل والأهم المشاعر لمن في تلك المشكلة، ولكنها تبقى مادة ثرية للسمر، إظهار الخبرات في حل المشكلات أو حتى إظهار الجانب الإنساني بالشفقة.

وتمر الدقيقة وراء الأخرى حتى يفقد الحديث لذته في هذا الموضوع، فلا يعدم المتحدثون إيجاد آخر يؤنسهم!

الفصل الأول

صباح غائم

كانت الدموع تنهمر من عيني بلا وعي مني، يدق الهاتف المحمول بكفي المرتعش كطفل يصرخ بصوت عال فيزيد هلعي، تنظر عيني الذاهلتين للرقم المجهول دون قدرة حقيقية على سماع ما سيسترسل عبر سماعته من كلمات أخشاها.

هل هناك مزيد من المفاجآت في هذا اليوم؟ بل هل بدأت المفاجآت بعد؟

كنت أتمتم بآية الكرسي أحاول لملمة شتاتي الذي لا أدري؛ كيف تناثر هكذا؟!

وكأنني لست تلك القوية التي حسبتني بنيتها، وأقسمت بثقة أنها لا يمكن أن تعود لما كانت عليه من قبل.

مع تعالي الرنين مرة أخرى، أجبت بصوت مرتعش استنكرت أذني أنه منبعث مني:

"السلام عليكم"..

أجابني صوت رجولي متعجل بشكل رسمي:

هل معي دكتورة "منال" عزمي؟

كان قلبي يضطرب بين جانبي وبالكاد تخرج حروفي مبعثرة متلعثمة وقد امتدت أصابع كفي تواسي قلبي المرتجف بين ضلوعي:

ن.. نعم من معي؟

قال بتقرير كمن لا يود تضييع الوقت في ما لا يهم: ابنتك "شجن" هنا بالمشفى، حصلنا على رقمك من زميلها "فادي" الذي أحضرها للمشفى، ننتظر حضورك في أقرب وقت.

أغلق الخط دون انتظار، اعتدلت أنا واقفة بلمح البصر، أعدل من وضع غطاء رأسي على عجل.

أحيانًا تكون كل التفاصيل سخيفة، نحتاج فقط لتجاوز الوقت، أحتاج فقط أن تراها عيناي.. بخير..

لم ترحم الأفكار التي تطرق عقلي بلا رحمة منذ ست ساعات ألمي ولا انفطار قلبي، بل صارت تتضخم حتى بقيتُ أبذل مجهودا مضنيًا لأركز فيما عليَّ فعله، التقطت مفاتيح سيارتي وهاتفي المحمول مُلقية إيّاهم بحقيبتي في طريقي للخارج.

بدا لي كل شيء يتحرك ببطء شديد، أم تراني أنا العجولة اليوم؟!

كنت ما أزال أمسح دمعة خائنة كل بضع ثوانٍ رغم زعمي التماسك.

"فادي"؟!

بصعوبة كنت أحاول تذكر الاسم، ترى ماذا حدث لكِ يا ابنتي؟!

بالكاد كنت ضمنت لكِ بعض الاستقرار النفسي والهدوء، فماذا جرى ليتفتت كل ما بنيته فجأة؟!

ما الذي فاتني وأنتِ أهم ما أملك أحفظ تفاصيلك عن ظهر قلب؟!

ابنتي..

اختفت عن ناظري، ولم تجب اتصالاتي طوال اليوم!

في البداية تخيلت أن أوقات اتصالي خلال اليوم صادفت محاضراتها الجامعية؛ فلم تستطع الإجابة - رغم حفظي لمواعيدها اليومية أكثر منها - ومع مرور موعد عودتها وساعات عدة بعده، انهارت كل أسباب الاطمئنان التي حشرتها في رأسي بالقوة طوال يومي هذا..

الشرطة؟

نعم، كانت أول من استنجدت به بعد "ألفت" صديقتي، التي بقيت تتابعني طوال النهار بالاتصال والبحث والدعاء، لكن إجابتهم جاءت فاترة، كقهوة باردة، لا تملك طعمًا ولا فائدة، كصوتٍ آلي..

أجابني شخص ما من قسم الشرطة، بعدما سكبت حرَّ قلبي قهرًا.

حسنًا، لم يمضِ حتى الآن أربعة وعشرون ساعة، ربما تظهر قريبًا.

صمتي الذاهل أنبأه أن رده لم يكن مناسبًا أبدًا، فقال بتململٍ صبغه باهتمام زائف:

لا شئ يدعو للقلق كما فهمت فهي كبيرة عاقلة، ولا أعداء أو سبب لتوقع الأذى، دونت بيانات الحالة عندي و....

فقدت الاتصال معه بإغلاق الخط، رغم أنه على ما يبدو كان مفقودًا من البداية!

ها أنا أوقفت السيارة أمام باب المشفى الذي أملاني اسمه المتصل، وبدأ سيل دمعاتي يشوش الرؤية أمامي، وتتعالي شهقاتي، حتى وصلت لباب المشفى ملتاعة، تعبث أصابع يمناي بأرجاء حقيبتي لإحضار إثبات هوية أبرزته للموظفة بالاستقبال، فأشارت للمصعد متمتمة برقم غرفة يبدو أن ابنتي ترقد على سريرها.

أمام المصعد الذي حضر على مهل مسحت وجهي بعنف، وتحركت بخطوات سريعة تهفو روحي للاطمئنان عليها.

أكاد أركض بالممر في طريقي غير عابئة بالنظرات المتطفلة التي تناثرت حولي كشخص غريب الأطوار.

اصطدمت بشخص قادم من الاتجاه المقابل فاعتدلت معتذرة بهمهمات سريعة، فلا وقت لديّ لتلك الشكليات لكن صوته جمد الدماء في عروقي قائلا بإشفاق:

هي بخير اهدئي.

رفعت وجهي إليه لتلتقي عينانا لأول مرة منذ خمسة عشر عامًا!

نعم كان "عادل"!

كدت أفرك عيني لكي أتأكد أنني لم أدخل في مرحلة الهلوثة بعد، ولكن صوته كان مستمر يطمئنني بنفس ذات العينين الهادئتين، تلك الملامح التي طالما كانت تنبيء بذكاء، ولا تخلو أبدًا من طيبة.

كنت مشوشة تمامًا، لا أملك وقتًا لتبادل التحايا والأخبار، لم أجد ما أنهي به الموقف؛ لكنه كان يملك مايقول مقدرًا ارتباكي:

هذا مكان عملي، أنا المسؤول عن متابعة حالة "شجن" النفسية، تفضلي معي.

لم يجيبه إلا الصمت..

القلق مرافقا خطواتنا لغرفتها، فاسترسل مطمئنا: طلب الطبيب المعالج غسيل معدة لها الآن، بعد قليل يسمحون لنا برؤيتها.

حوّلت وجهي عنه، أخبئ دموعي التي تهطل بلا توقف كصنبور يحتاج إصلاح عاجل، أقل من عشرين ساعة بقليل أبحث عن صغيرتي بلا جدوى!

بعض الساعات تبدو كسنواتٍ عجاف!

خلال دقائق وصلت "ألفت" التي احتضنتني تهديء روعي، تثبتني بالكثير من الكلمات المطمئنة عن كونها بخير الآن، على كرسيين متقاربين جلسنا بالاستراحة الخاصة بالزوار.

أتى حاملًا كوبي مشروب ساخن، كما تحكي الأبخرة المتسللة منهما.

ارتسم الانزعاج على وجهي بمجرد ظهوره وقد تذكرت من يكون، بينما بدا أنه تفاجأ بوجودي، فرفع خصلة من شعره الفاحم انسدلت على جبينه مغطية جانب من حاجبه الحاد، وقد ارتسمت ابتسامة جانبية على شفتيه الرفيعتين القائلتين بسخرية:

أنا بخير، لا تقلقي عليَّ يا دكتورة، ولا شكر على واجب.

انطبع على وجهي مايدل على اشمئزازي من ذاك اللزج ومزحته الثقيلة، في وقت غير مناسب إطلاقًا، وتمتمت "ألفت" - وهي توكزني لأتحدث - ببعض كلمات الشكر استمع لها مزهوًا.

لم أحبه يومًا بجانب صغيرتي؛ حين لاحظت تواجده بجانبها في أكثر من صورة بأكثر من مناسبة بالجامعة لتكريمها كأفضل مصورة لمجلة الجامعة.

نظرة عينيه، لم ترح قلبي قط!

أذكر حين سألت "شجن"، وكأنه سؤال عابر وأنا أرمق صورتها، وقد كسا وجهها فرح عارم في إحدى المعارض في الجامعة، وقد اندس جسده

بين حدود الصورة مع عدد من ضيوف المعرض: من هذا يا "شجن"؟ لم أره معكم من قبل؟

بدأت "شجن" تتحدث بحماسٍ أوجع قلبي.

هذا "فادي" يا أمي، إنه زميل يكبرنا بعامين.

ثم جلست مقابلي مكملة بذات الحماس المشتعل الذي زاد قلقي: لو تعلمين يا أمي كم يفرق العام في رؤية الأنسان للحياة!

أشعر حين أستمع لخطبه أمام الزملاء؛ كم أنه يملك مدارك واسعة! خبراته عن الحياة تثبت لي كم أنا ساذجة صغيرة وغبية!

شردت عيناها مع آخر جملة فجذبتها من ذراعها لحضني قائلة، لا تشتمي صغيرتي الحلوة.

فضحكت وقد استكانت بين ذراعي كهرة مشتاقة للحنان، حنان ظللت أسكبه طوال بقائنا سويًا، ولم يزدها إلا عطشا للمزيد كل مرة.

اليوم أشعر أن هذا "الفادي" أخذ أكثر من حقه في حياة صغيرتي، فهل هذا صحيح؟!

كانت الظنون تروح وتأتي على رأسي الذي يكاد ينفجر.

تجاهلت وجوده أو أنكرته من يومها، محاولة تفهم مساحة من الحرية تحتاجها صغيرتي حتى لا أخنقها، مادامت ليست علاقة خاصة ومادام

اللقاء بينهم يقتصر على الجامعة وسط جموع أخرى من الطلبة في إطار العمل العام الذي تعشقه صغيرتي، فلا بأس.

غشاوة دموع وغصة في حلقي مازالت موجودة وأنا أتذكر أنني لم أودعها صباح اليوم، لم تصحبها دعوتي بالسلامة.

سيظل هذا اليوم مختلف، لن أنساه أبدا! ابنتي خرجت وعادت على المشفى!!

بدوت متحفزة وأنا أهمّ بإلقاء كلماتي لفادي؛ الذي وقف يتناول مشروبه بهدوء، ولكن لن ألفظ أي كلمة.

لاحظ "عادل" تشنجي، فقال هامسًا بجدية وعينيه تشيران ل"فادي": ربما يجب تأجيل ما تنوين قوله.

ثم طلب من "فادي "التوجه لمكان الاستراحة، وصحبني لغرفته كطبيب وأنا أسير برفقته باستسلام!

ذاك الاستسلام الذي كنت أرضخ له كل مرة - في هذا الزمن البعيد وقد ظننتني ودعته - حين أتعرض لضغط يفوق احتمالي.

رضخت له يوم جاءت أمي لغرفتي يوما، كنت عائدة من الجامعة، تحملني الطيور فوق أجنحة السعادة، وقتها كان عامي الأخير.

وقد قال لي "عادل" اليوم بابتسامة رزينة، وعينين تعانقان الأرض، بعدما قلت بسعادة غامرة وأنا أجمع تكاليف حفل التخرج: يجب أن نحضر

جميعًا الحفل أيّا كانت ظروفنا ستكون ذكرى طيبة لنا بعد سنين دراسة طويلة، جمعتنا قد لا نلتقي بعدها كثيرًا بعدما تفرقنا دروب الحياة.

لكنه قال قاصدا التلميح: لا أعتقد ذلك ممكنا.

قلت بخجل داريته بكياسة: بالتأكيد سنلتقي أنا وأنت، بحكم الجيرة لكن أنا أقصد باقي الزملاء.

لكنه رفع عينيه إليّ قائلاً بحزم: الأمر أكبر من ذلك، ربما لا نفترق أبدا.

انفرجت شفتاي بدهشة، فطوال دراستنا معا لم تتعدى علاقتنا بضع مواقف عفوية جمعتنا.

نعم نشأنا معا وكنت كلما أراه أتذكر"عادل" الصغير ذو الدراجة الزرقاء، التي كان فخورا بها، يحسده الجميع عليها، وكيف لا وهي هدية كونه الأول على المدرسة من والده.

دائمًا ما بقى شيء بيننا لم أسميه يومًا حب، ولَم أعرف ما الحب أصلاً، فلم يكن لدي وقت لسلوك دروبه، ولا سمحت تربيتي المحافظة بفهم خطوطه في حياة الفتيات.

لذا فور سماعي كلماته هربت من أمامه أتساءل: لِمَا قلبي ينتفض بين ضلوعي؟!

متسائلة، إن كنت أسأت فهم كلماته بغبائي العاطفي!

لكنني رغم ذلك كنت سارحة بكلماته طوال اليوم بعد عودتي، حتى هربت إلى غفوة قصيرة بعد يوم مرهق طويل، وعندما صحوت كان النهار يسحب آخر خيوطه.

كالعادة كان أبي بالعمل، وقد جلست أمي وأم "عادل" تتسامران تستمتعان بالرفقة وتأنسان بتجاذب أطراف الحديث، قالت أمي بصوت خافت لكنه لايخلو من فخر:

لقد تقدم طبيب لابنتي ووالدها يبدو راضيا عنه.

وأكملت مؤكدة: سيأتي الأسبوع القادم للتقدم بشكل رسمي.

كانت علامات البشر والسعادة على وجه أمي، تقابلها لوعة وانزعاج على وجه أم "عادل" التي قالت بنزق: ولَم العجلة!

فقالت أمي وقد استغربت رد رفيقتها: ولم لا؟!

لن يتزوجا غدًا بأي حال.

ثم أكملت رغم عدم رضاها عن رد رفيقتها: العريس يعمل بالخارج، ويحتاج ردًا سريعًا، ليتمم الإجراءات سريعًا ويصحبها معه إن تم الاتفاق.

ضربت أم "عادل" صدرها قائلة: بهذه السرعة؟!

تريثوا..

ثم ابتلعت ريقها قائلة: ربما يأتيها من هو أفضل وتعرفونه ويصونها.

خان أمي ذكائها المعروف أو تغابت عن فهم التلميح بكامل إرادتها لا أدري، لكنها أجابت وهي تحضر صينية زينتها أكواب العصير البارد ببساطةٍ:

أبوها يقول سأل عنهم ومطمئن له.

فقالت أم عادل وقد نفدت سبلها:

لعل الله يكتب الخير.

فأمنت أمي بسعادة رافعة كفيها.

وبعد انصراف أم "عادل" خاطبت أمي بحرج:

أمي لِمَا العجلة بأمر الزواج؟!

فقالت بغضب:

عجلة؟! تزوجت وأنجبت وأنا أصغرك بأعوام.

قلت بتنهيدة يائسة: لكنني بالكاد أنهيت دراستي الأساسية، ومازلت أحتاج مزيد من الدراسة.

فأجابت تحثني على الموافقة: دراستك أكملها في بيت زوجك لو أكملتها هنا لن تتزوجي أصلا!

"كان ما لنا ومال الطب"!

لولا تشبثك بالأمر لدخلت جامعة سهلة وأنهيتها، وتزوجت منذ زمن، لكن أبوك لم يشأ أن يزعجك بفرض دراسة ما عليك، وهاهي آخرة دلاله الزائد!

تزوجت كل بنات العائلة من عمرك وأصغر منك، وبقيت أنتِ يحترق قلبي عليكِ!

مرّ كل شيء بعدها بسرعة البرق، لم يكلمني "عادل" ثانية، تحاشاني بكل مكان.

ولَم تقل أمه أي كلمة إضافية؛ حتى أنني تأكدت أني كنت واهمة بتفكيري، وربما توهمت؛ بينما لم يكن هناك عرض زواج حقيقي من طرفهم، وقبلت العريس تحت إلحاح أمي فلم يكن هناك ما يعيبه.

وما تلى ذلك كان درسا تعلمته بالطريقة القاسية، أن لا أرضى بأي شيء تحت ضغط. بضع شهور من عمري ضاعت بزواج محكوم عليه بالفشل، تعلمت فيهم ما قلب حياتي رأسا على عقب، وخرجت من التجربة القاسية بشخصية مختلفة أكثر فهما لحقيقة الحياة، لأتحول لما أنا عليه الآن.

زفرت ببؤس حقيقي، وقد تهت بين الماضي والحاضر، في دوامات عنيفة كادت تبتلعني، فقال "عادل" بإشفاق: دعينا نتحدث بصراحةٍ.

انتبهت لحالي؛ حتى أنه يخيل لي أني انتفضت من بحر خيالي الذي كنت غارقة به.

قال لي بنبرة واثقة: المهم أنها الحمدلله بخيرٍ الآن، كل ما دون ذلك يمكن إصلاحه، يبدو أنها تحتاج الكثير من اهتمامك.

ثم قال وهو يرمقني متفحصا أثر الحقيقة التي سيلقيها على مسامعي: هل توقعت أن تقدم ابنتك على محاولة انتحار؟

أجبت بضعف غزا روحي هامسة وقد تهدل كتفاي من هول الصدمة: انتحار؟!

هل هذا مؤكد؟

كانت عيناه تطوف بوجهي محاولاً فهم أسباب الحادث؛ يحثني أن أسرد أسباب مثل ذلك الفعل منها فقلت مبادرة قبل أن يتفوه بالمزيد: صغيرتي كانت مشوشة قليلاً أمس، وهذا يحدث بين فترة وأخرى، لكن ما عدا ذلك لم أتوقع أبدًا أن تفعل شيئًا مثل هذا.

قال بلهجة متحفزة قليلاً، وكأن كلامي استفزه بتهوين الأمر: أي صغيرة؟!

أنت تتحدثين عن شابة بطولك ابتلعت كميات من حبوب دوائية عن عمد محاولة الانتحار!

رفعت كفي أحبس شهقة كادت تندعني.

فأكمل يصب كلماته الحارقة على جرحي: الفتاة انتظرت حتى كادت الجامعة تخلو من روّادها ثم فعلت فعلتها بإحدى الممرات، ولولا تصادف

مرور "فادي" وسماعه لصوت سقوط قوي وآهة خافتة، هرع على إثرها بها إلى أقرب مشفى؛ لكانت الآن في عداد الأموات!

عليكِ أن تصلي شكرا لله أنها بخيرٍ، وعليكِ بشكل أكبر، البحث عن أسباب ذلك ومعالجتها، والكف عن تسطيح الأمور بهذا الشكل.

كنت أنظر له بعينين متسعتين أحاول استيعاب في أي متاهة سقطت أنا وابنتي!

لقطة (٢)

كانت تراه وهي تسير في طريقها، ليست غافلة عنه، كمنحنى ظاهر أو منعطف متوقع، تعبث بطرف ثوبها وتدندن لحنًا خافَتا يسليها بالطريق.

ترمق بطرف خفي الكثير من رفاق الطريق، يؤنسها ألا تكون وحدها به، لكنها حينما اقتربت، ارتسمت الدهشة على محياها!

لم يكن منعطف!

بل متاهة كاملة ثعبانية متداخلة، التفتت لتبحث عن الرفاق لتتساءل ماذا تفعل!

البعض بدا ذاهلاً لا يحري جوابا، البعض حمل وجوهًا خبيثة حقا!

كيف لم تراهم هكذا من قبل؟!

أمسكت جانبي رأسها تحاول جمع شتات أفكارها المبعثرة، كانت تنظر لتلك المتاهة بمثابرة، تبتلع مرارة ما تكشف من حقائق زاعمة أن الضربة التي لا تقصم ظهرها تقويه، كاتمة في حناياها شقوقا صغيرة لتعالجها بدأب.

الفصل الثاني

بين فكي الخوف

تهت في دروب نفسي ناسية المكان والزمان!

تتابعت أمامي صورًا كثيرة، ولكن سؤال "عادل" كسر الصورة أمامي لشظايا محدثة دويا رغم صوته الهادي، هي تحتاج طبيب نفسي!

بدا لي أني أفهم ما يرنو إليه فقلت بتحفظ: اسمع لا داع لأي نوع من الشفقة على حالنا، أعرف أن الفتاة نالت ما يكفيها حقًا من صدمات في حياتها؛ بل ما يكفي لحيوات أخرى أيضا.

سأتصرف بالأمر منذ الآن، وشكرا لك.

رفع كفه يوقفني قائلاً بذات الهدوء الذي صار مستفزًا لي مع أعصابي المنفلتة:

الفتاة فعلًا تحتاج هذا العلاج، ولن يكون هناك من يهتم بها مثلي، يكفي أنها ابنتك فأراها كابنتي تماما.

احمَرّ وجهي بشدة لكنه تابع باتزان، ليس هذا وقت مناقشة أمور مضت منذ زمن.

ربما وضعتني الأقدار في طريقكم لأكون يد عون لها.

كان انزعاجي منبعه تشوش عقلي مع كل تلك المعطيات المزعجة في وقت واحد؛ تهز ثبات حياتي الذي ألفته لسنوات، كنت أدفع عني كل ذلك بيأس أريد فقط العودة لمستقر هدوئي ورتابة حياتي البسيطة مع "شجن"؛ لكن يبدو أن هذا لم يعد ممكنًا.

لكن إن أصر "عادل "على التدخل في حالة ابنتي الخطرة تلك بدافع من الشهامة وجيرة قديمة يحفظها، فأنا فعلاً أحتاجه، لا أنكر ذلك، أحتاج من يعينني على إخراجها من تلك البؤرة دون أن تتأذى أكثر، لكن ليكن الأمر ضمن تلك الحدود وبعدها يعود كل منا إلى طريقه.

كدت أرد عليه لولا أن دلفت الممرضة للغرفة قائله:

يمكنكم الآن رؤية المريضة.

نهض من مكانه في خطوات سريعة خلف الممرضة وهرع قلبي قبل جسدي وراءهما. على سريرها كانت شاحبة صامتة، وقد جلس أمامها ذاك "الفادي" يتحدث وهي صامتة، وبمجرد دخولي صمت بحذر، اقترب منها "عادل" بلهجة ودودة: لعلك بخيرٍ الآن يا "شجن"؟

بالكاد انفرجت شفتاها بهمهمة تفسر بصعوبة من خفوت صوتها: نعم، تقريبا.

جلس "عادل" قبالتها يراقب خلجات وجهها بنظرات خبير، مستنبطًا منها ما تمر به؛ بينما جلست أنا جوارها مغضبة، مما فعلت فور أن اطمانئت أنها بخير.

كان "عادل" يحدثها عن ضرورة الاهتمام بصحتها وطعامها وأشياء كثيرة، عن ضرورة أن تكون السند لنفسها وقوية، إلى آخر هذه الكلمات المحفزة التي كانت غير كافية بالنسبة لي.

لم يكلمها أحد مثلي، حياتي كلها لها، وبها، ومعها، وهذا جزائي!

محاولة انتحار فاشلة تسيء لي ولها!

لامست أناملها أطراف أصابعي في حركة طالما كانت إشارة بيننا لقربنا لبعضنا البعض.

انتفض قلبي اشفاقا عليها وكأن غضبي كان فقاعة صابونية غذاها شعوري برغبتها في البعد عني، فكانت تلك اللمسة البسيطة؛ توقظ طوفان حب وحنان في قلبي؛

نعم هي حقًا ابنتي.

لا يمكن أن تحمل الأم لأطفالها مشاعر أكبر ولا أعمق مما أملك لحبة قلبي.

أفسد صوت "فادي" المتسلل عبر أذني ذبذبات المشاعر التي كنت أحلق بينها قائلا:

حسنًا سأنصرف.

ثم رفع خصلة شعره المتمردة_ التي أبغضها مثله _خلف أذنه بحركة آلية مكملاً: اسمحيلي أن أتصل بكِ لاحقًا للإطمئنان.

أومأت "شجن" بضعف ونظرة عينين تائهة تماما، بينما انتفض جسدي بغضب من هذا الكائن اللزج؛ لكن إشارة خفية من "عادل" أن اهدئي، جعلتني أضم قبضتي بغضب محاولة بكل قوتي زم شفتي ومقاومة بصق كلماتي الموبخة في وجهه.

عدنا للمنزل تتوكأ كل منا على الأخرى، شبحين ضعيفين بتفاصيل شاحبة، تحكي الكثير رغم الصمت البائس.

فتحت باب المنزل ودلفت أسحب نفسًا طويلاً، ها قد عدنا، ها قد مر يوم طويل للغاية ولكنه مر رغم كل شيء.

مرت "شجن" بهدوء شديد من جانبي، متجهة لسريرها مباشرة تحملها قدماها بالكاد.

كنت متأكدة أنها تحتاج ترتيب أفكارها الآن قبل أن تتحدث معي.

وقفت على عتبة غرفتها أراقب حركتها الواهنة بآلية، وهي تبدل ملابسها بمنامة مريحة وتلقي جسدها النحيل على سريرها، أغلقت النور بعد لحظات ففرقت الغرفة بظلام دامس تعشقه هي دائمًا.

هي الآن تفكر، ترى بعقلها الأمور بعدما غشي عينيها الظلام.

فركت كفي بتوتر، زافرة متى ينتهي كل هذا؟ كيف لي أن أقشع هذه الغمامة الرمادية البائسة عنها؟

لا أظن قريبا!

ابنتي تمر بأزمة، أدرك الآن أنها تسترجع كل ما فات، وهو للحقيقة لم يكن هينًا!

حركت قدماي الرافضتين مغادرة باب غرفتها أرغمهما للذهاب للنوم، الذي سبحت به "شجن" خلال ثوانٍ في استسلامٍ عجيب بعد يومٍ مهلك نفسيًا وعصبيًا.

وبعد عدة ساعات تسللت أشعة الشمس من نافذتي، التي تركت منها جزءًا صغيرًا مفتوحًا تتسرب إليّ منه أشعة السعادة.

أشعة شمس الصباح بما تعنيه من أمل، وانجلاء للظلام بكل معانيه.

مما يشعرني بالراحة والهدوء.

التقطت أذناي خطوات رشيقة - كنت أنتظرها على أحرّ من الجمر- حول السرير مما أيقظ عقلي كله دفعة واحدة، وكما توقعت فتحت عيناي على أحب وجه لقلبي.

كانت "شجن" تملأ الفراغ أمام عيني تحرك كفيها على ذراعي ووجهي قائلة، بصوتها العذب: أجمل فطور لأجمل أم.

كان وجهها الأبيض مرتاح الملامح سعيدًا كأن شيئا لم يكن!

تناثرت خصلات شعرها الحمراء الثائرة حول وجهها في موجات، وأكمل المشهد نقاط صغيرة زينت أعلى وجنتها.

جميلة هي ابنتي، لكن الحياة أحجية صعب عليها فهم منعطفاتها؛ التي كانت حادة جدًا معها.

ابتسمت برفق أحاول ألا أفزعها بدوامة القلق داخلي عليها، مغلقة فمي كما أمرني "عادل" عن طرح كثير من الأسئلة التي تحرق جوفي، وقد استوعبت تمامًا أنها فضّلت تخطي كل شيء بلا كلام، وكأنها اقتطعت الأمس من صفحات حياتها في محاولة جديدة رسمها عقلها للهرب من دوامة الحزن؛ هكذا كانت عادتها، في البداية ظننته حلاً، لكن ثبت مما حدث بالأمس أنني كنت مخطئة.

يجب أن تفهم ويجب أن نتكلم؛ وإلا ستعود أمواج أفكارها تهاجمها كل يوم فور أن تغرق في الظلمة؛ كما قال "عادل" والله أعلم إلى أي حد سيوصلها ضغطها عليها.

كانت تثرثر ضاحكة عن كل شيء، وأي شيء لتتجاوز الأمر بهروبها.

زكي الخبز الطازج حضّرته بنفسي، ألا تشمين رائحته الزكية؟

والبيض المخفوق كما تحبينه تماما!

وهذه الزهرة الرقيقة ليست طبيعية للأسف، لكنني أعلم كم تسعدك رؤية الزهور.

سرحت صامتة لوهلة مكملة بسرعة بعدها وكأنها تخشى أن تتوه بعيدا: تمنيت أن يكون صباحك حلوا مثلك.

ابتسامتها تداعب رموشها لكن في أعماق عينيها الخضراوين انكسار.

هذا الانكسار، هو أول ما لفت نظري إليها يوم التقينا.

كنت أسكن وحدي بتلك المدينة الجديدة، علي عقب عملي بهذا المشفى الكبير.

عرض لم أستطع مقاومته، حين أخبرني أخي بفرصةٍ عن طريق أحد المعارف، بالعمل في مشفى كبير بالعاصمة براتب مجز.

فرصة جديدة لترتيب حياتي التي كانت وقتها ركام، تحطم زواج دام بضع شهور، بدأ بلِمَ لا؟!

هو شخص نظريا لا بأس به، وفرصة لا تعوض، كما قالت أمي ولَم أكن أملك بديل، أو هكذا ظننت وقتها، مرورا بشهور طويلة كسنواتٍ عجافٍ، تكسرت فيهم روحي لأجزاء صغيرة، يومًا بعد يوم وأنا أسبح ضد التيار، أحاول إقناع نفسي أنني بخير، لكني اصطدمت بعنف بعثرة بعد أخرى، حتى استسلمت، وأعلنت انسحابي من هذه الحرب الخاسرة أجرّ قدماي النازفتان تشيعني همسات البعض من حولي بشماتة لم أفهم سببها: لم تستطع الحفاظ على بيتها، طبيبة نعم لكنها لا تقيم منزل العلم ليس كل شيء.

نعم قبلت العرض؛ وابتعدت بجبن، فأنا لم أدع الشجاعة يومًا، دائمًا ما أظهرت صلابة وقوة لكنني كنت هشة جدا من الداخل، وخشيت أن أظهر ذلك فيجهزوا على ما بقى مني!

ووجدته في طريقي ذات يوم وأنا عائدة من العمل؛ مبنى قديم، ولكنه بحالة جيدة، وقد عُلّقت عليه لافتة، كتب عليها بأحرف باهتة أنها دار أيتام.

بعد التردد عليها لعدة أيام، سعدت بها أيّما سعادة، كان مكاني المفضل لبث الدفء والبحث عنه أيضا، بين عيون الصغار، أذهب له ساعتين يومًيا بعد العمل.

أشاركهم أفكارهم وأعالج من يحتاج العلاج، أسمع منهم، وأحكي لهم حكايا، ونلعب سويًا حتى ينال مني التعب.

كانوا الصغار متعطشين للحب والاهتمام أكثر من أي شيء مادي آخر، وإن كانوا مازالوا محتاجين لدعم مادي أيضًا.

وفي يوم ما كنت أحمل لهم طبق كبير من الحلوى بحذر حتى لا يقع محتواه مني، أوازن خطواتي بعدما فتح الباب عطشى عيناي لارتشاف نظرات السعادة والبهجة في عيونهم الصغيرة، فتكون زادا لبهجتي وسعادتي.

التف حولي الصغار، يترقبون تلك المفاجأة الحلوة بأعين مفتوحة وقلوب مشتاقة، بينما أخذت المشرفة الطبق لتضعه على طاولة خشبية بمنتصف المكان.

جلست "علا" تلك المشرفة الشابة الممتلئة بالحيوية، تطلب منهم امتثال آداب الطعام، تحاول ترتيبهم حول الطاولة بشكل مناسب، وأنا أراقبها باستمتاع متسائلة هل تستطيع ترتيبهم بعد تلك الفوضى.

فأمسكت بيد أصغرهم تقربه من الكرسي قائلة برفق: تعال، يا محمود اجلس هنا أنت ولد مؤدب.

بدأ الجميع يفعلون كما تقول، حتى تسمح لهم بتناول الحلوى.

فابتسمت أخيرا قائلة:

أحسنتم يا صغاري أنتم الأفضل حقا.

ورفعت وجهها لي مكملة بفخر: ألم أخبرك يا دكتورة أن أطفالي هم أفضل أطفال بالعالم!

ابتسامة فخر ظهرت على وجوههم البريئة حولها.

وجهها الهاديء الملامح وملابسها البسيطة لكنها مرتبة رغم ذلك، حبها للأطفال وحرصها عليهم وروح الأمومة داخلها، رغم أنها لم تتزوج بعد ولَم تتجاوز الثالثة والعشرون كل ذلك جعلها تكبر في نظري يوما بعد يوم فصرنا أصدقاء.

لاحظت صمتي الطويل على غير العادة فاقتربت مني مشجعة، تعالي يا دكتورة يجب أن تجلسي معهم تأكلي معهم ليكون بينكم عيش وملح.

هززت رأسي موافقة لها، وجلسنا كلانا مع الصغار.

لاحظتها في آخر الطاولة، أخذت قطعة حلوى واحدة اختارتها بعناية ثم أمسكتها بأناملها الدقيقة، وانسحبت لطرف الغرفة على كرسي صغير تلعق طرفها لتتذوقها، كهرة صغيرة وديعة بدت.

بدأ صوت الأطفال يعلو وحركتهم تزداد، وبقيت هي على صمتها وسكونها تقضم قضمات صغيرة، فاقتربت منها وجاورتها على هذا المقعد الخشبي العتيق، فرمقتني بعينيها الخضراوين، وكان هذا أول لقاء بتلك العينين اللاتي صارتا فيما بعد "نور حياتي".

لقطة (٣)

كنقطة سوداء ألقت لقارعة الحياة، بلا أهل بلا ماضي سوى بعض ذكريات ضبابية، ذكريات منثورة داخلها ولكنها لا تكفي لتتذكر ما حدث بالضبط، الكثير من الصراخ والحزن والخوف بقوا كوجع لا تستطيع نسيانه، كبئر سقطت فيه دون إرادة منها، فلا تستطيع الخلاص من ظلماته، غارقة بين الواقع والماضي تتأرجح بينهما فاقدة كل قدرتها على الاتزان، رغم ذلك بصعوبة وثبات تُحسد عليه وببعض المحاولات استطاعت رسم طريقها، ولكن حين تعود تلك الخيالات للواقع تسقط فجأة دون أي مقدمات.

الفصل الثالث

خلف ستائر الماضي

تحركت "علا "بصبر مقتربة من "شجن " الصغيرة وطلبت منها الانضمام لأصدقائها في محاولة لدمجها معهم، كانت مرة من مرات كثيرة سبقتها، وكالعادة وكما توقعت "علا" رفضت بنظرة عين حزينة مظلمة، وهزة رأس رافضة هذا الواقع المفروض عليها، وبإصرار جلست "علا" أمامها على ركبتيها قائلة: لقد قلنا جميعكم أخوة وأخوات.

اقتربتُ آخذة دوري في المحاولة، بعدما سمحت لي "علا "بذلك، اتسعت ابتسامتي بحماس وأنا أحتضنها بين ذراعي بحنان لتدهشني، وهي تتجاوب وتشد ذراعيها حولي بقوة، كأنها تهرب داخل هذا الحضن، بكل ما يعنيه من احتواء وحنان وحب، وبدأت أحاول إثارة حماس الصغيرة لمشاركة الآخرين: أنتِ محظوظة حقا، لديك الكثير من الإخوة والأخوات.

ثم أمسكت كفها بلطف في تماسٍ جسدي حنون أشجعها على النهوض معي: هيا لنلعب معهم هم بانتظارك.

"ألقت" " شجن" نظرتا على الفتيات فوجدتهن يرمقنها وتشير إحداهن لها أن تعالي، فتحركت باتجاهن بتردد، ثم أعادت نظرها إليَّ متسائلة

فأومأت وصفقت مشجعة، بدأت بسمة خجولة تظهر على شفتها، تسير خطوة تجاههن ثم تلتفت إليّ لتطمئن أنني لازلت أناظرها، فأصفق، لتعود للنظر إليهن والخطو تجاههن خطوة، وتكرار الالتفات إليّ لأخذ جرعة الاهتمام والدعم اللذيذة من التصفيق مصحوبا بابتسامة ونظرة مشجعتين، حتى وصلت إليهم وبدأت تحاول اللعب بغير حماس وكأنها تنوي اختبار الوضع!

فجلست "علا "على الكرسي بجواري، وهي تثمن الإنجاز الذي قمت بتحقيقه مع الصغيرة، تنهدت قائلة بتأثر ونظرها يتابع "شجن" ومحاولتها للإندماج: تلك الصغيرة المسكينة، رغم سنوات عمرها الخمس، إلا أنها تدرك أن هذه ليست دنياها هذا ليس عالمها الذي تنتمي إليه!

قلت بتساؤل وأنا أتابعها معها بعيني؛ وقد بدأت الصغيرة تثير فضولي نحوها أكثر:

ماذا تعنين؟

ألم تكن دومًا هنا؟

اتكأت آخذه دور الراوي لحكاية مثيرة وقربت رأسها مني قائلة، بصوت خفيض وهي تنظر بعمق عيني: إنها قصة تصلح كقصة فيلم وسيقول البعض أنها شطحة خيال من المؤلف!

اتسعت عيناي دهشة، وكأن هذا أسعدها وغذي شعورها بأهمية الحكاية فأكملت: عمرها هنا بضعة أيام فقط!

جاء بها رجل أعمال شهير ليس من هذه البلدة، قال أنه أحضرها لهنا بدافع فعل الخير، زاعما أنه وجدها بالشارع خلال زيارته للمحافظة قبل عودته للعاصمة، لكنه وفي أثناء انتظار انتهاء إجراءات إدخالها، سمعته زميلتي يثرثر في الهاتف شامتا: لقد وجدت حلا، لن تجدها أبدا لا بالمحاكم التي اعتقدت أنها ستنصرها عليّ ولا غيرها.

ثم صمت يستمع للطرف الآخر وأكمل: أعرف أن الوقت الباقي لا يسمح لإضاعة مزيد منه، ولا مكان في حياتي حاليا لفضائح لن تكف أمها عن إثارتها، ستغلق فمها للأبد خشية أن يطالها مزيد من الأذى، وأملا أن تكون ابنتها بخير.

نقطة ومن أول السطر، كانت قصة حاولت رسمها تلك الغبية، دون أن تقدّر من أنا وماذا يمكن أن أفعل، وستتعلم الدرس.

يبدو أن الانزعاج الظاهر على ملامحي وأنا أستمع للقصة جعل "علا" تتراجع عن ثرثرتها فقالت بحرج: يبدو أني ضايقتك يا دكتورة بكثرة كلامي، وأنت تأتي لهنا لتفرحي كما قلت لي من قبل.

ثم فركت كفيها بحرج قائلة: أنا حقا آسفة لإزعاجك!

هي طفلة مثل كل المساكين هنا، لكن ربنا رحيم بهم ويرسل لهم قلوب رقيقة مثلك ترعاهم.

وأكملت ببهجة مفاجئة كأنها تذكرت شيئا جميلا:

وأحيانا تفاجئني تدابير ما قدر الله، ويجد أحدهم أسرة تحتضنه وتتبناه، كأنه أحد أفرادها، فأسعد لذلك وفي النهاية هو رزق كأي شيء بالحياة، هذا ما يعينني على تحمل المآسي التي أراها كل يوم هنا!

لكنني أمسكت كفها بإصرار قائلة وقد اتخذت قرارا:

ليس الأمر كذلك أبدا لست متضايقة، لكنني أريد أن أعرف كيف يمكن تبني طفل؟

وهل يجب أن نكون أسرة؟

ثم أكملت بترددٍ وبعض انكسارٍ لم يبرأ بعد، أقصد تعلمين أنا مطلقة!

بدا البشر على وجهها وكأنها فهمت بذكائها الفطري ما أفكر فيه، لا أعتقد أن هناك مشكلة في ذلك.

ثم استرسلت تتحدث بما يجيش بصدرها هي: لكن أتعرفين يا دكتورة أكثر ما أكره؟

سألتها_ بشغف لرؤية طريقة تفكيرها التي طالما تثير إعجابي_ فقالت وخيوط غضب تمتزج بنظرتها: أن يأخذ أحدهم طفل أو طفلة للتبني، ونقول له بأمانةٍ كل المصاعب التي ستواجهه مع هذا الطفل، وتعامل المجتمع وما شابه، فيجيب أو تجيب بثقة أنه قدر المسؤولية ويحمل طفلا يراه طاقة نور فتحت له ليعيش في أسرة ككل البشر، ولو لم تكن أسرته الحقيقية.

ويمر بعض الوقت ليعود بكل بساطةٍ، مقررا أنه لم يعد "يريده" كأنه اشترى بضاعة ما ويريد إعادتها.

أو كأنه كان حيوانًا أليفًا لعب معه وقتًا واكتفي.

وقتها أتمنى لو قتلته، كما قتل الكثير من الأشياء الحلوة عن الأمان والاستقرار في قلب الصغير.

ابتسمت برزانةٍ وقد فهمت ما ترمي إليه ووعدتها بكلمات شددت علىها، سأكون بعون الله حافظة للأمانة.

"أمي؟".

رفعت بصري "لشجن" التى تأكل كأنها لم تأكل منذ دهر، وتتكلم كأنها كانت تكبت كلمات أعوام طويلة.

وقلت مغمغمة ومازالت أجواء الذكرى تعبث بمخيلتي: هممممم.

فقالت بغضب مصطنع واضعة كفها بوسطها باعتراض: أنتِ لا تنصتين لي ولا تأكلي أيضا.

مددت كفي آكل لقيمات لأرضيها، وبداخلي عزمت على قرار كنت ترددت فيه لسنوات وجاء الوقت لاتخاذه فلا مجال لأي تردد.

توجهت لعملي طابعة قبلة على جبين ابنتي، وقبل خروجي من الباب كان هناك عليه طرقا منغمًا عابثًا أعرفه، فتحت الباب ضاحكة ليقابلني وجه "ألفت "المليء بالبشر دائما: "ندى" جاءت لتجلس مع "شجن".

ظهرت "ندى" ابنتها محيية إياي ثم اتخذت طريقها للداخل..

لتكمل "ألفت" بنظرة جانبية غامزة: معها بحقيبتها، ما يسلي وقتهم من حلوى ومسليات وبعض أشياء جهزتها" ندى" لتمضية الوقت، ثم أكملت وهي ترمق الامتنان الغارقة به عيناي جاذبة ذراعي: هيا سنتأخر.

قد أحضرت "ألفت" ابنتها "ندى" لتسليها وتجالسها لحين عودتي، فلم يكن مناسبًا تركها وحدها ولو زعمت أنها بخير، بعض الناس يكونون إخوة دون رابطة دم، و"ألفت" كانت أختي التي لم تنجبها أمي.

وفي كافيتريا المشفى، خلال وقت الاستراحة كان موعدي مع أوراق صفراء قارب عمرها الخمسة عشر عاما.

كتبت على تلك الورقة يومها ما قالته "علا" حتى لا أنسى، قلبتها بحذر حتى لا تتفت _ فهي بالأساس مهترئة كأنها تنوء بحمل السر طوال تلك الأعوام_ حتى وصلت لما أبحث عنه:" محمود الشهراوي".

كنت أتخيله كما حكت عنه "علا" فيقشعر بدني من القسوة التي مثلّها دوره في قصة صغيرتي.

تُرى هل فكر يوما ما بابنته بعد ذاك اليوم؟

هل كانت تشغل حيزا من وجدانه؟

هل أخذت ملامحها عنه، أم عن أمها، أم مزيجا منهما؟

بالتأكيد لم تأخذها مني!

وخزة جالت بقلبي وأنا أتذكرها بعمر العاشرة، حين عادت من المدرسة مرة تبكي، على غير ما اعتدت.

سألتها بحنان:

مابك يا حبيبتي؟

فلم تجبني إلا الدموع وهزت رأس تنفي رغبتها بالحديث، لطالما كانت ترفض الحديث عن آلامها الخاصة تضحك وتثرثر طوال الوقت، فإذا حزنت عرفت ذلك من صمتها الغير معتاد.

ضممتها بين ذراعي أحميها من كل العالم داخل أسوار ذراعي الحصينة؛ كما تحب حتى هدأت ونامت فأودعتها بسريرها برفق، ثم أمسكت بحقيبتها الصغيرة أقلب محتوياتها بحثا عن أي أثر يحكي ما تشعر به، وبين الكتب كانت ترقد ورقة بيضاء، رسم في أقصى يمينها أم وفي أقصى اليسار أب وبينهما طفلة تشبههما.

بالتأكيد كانت هذه الطفلة هي الرمز الطبيعي للأطفال!

لكنها ليست "شجن"!

لعّله كان موضوع اليوم للرسم مع المعلمة وأوجعها بالتأكيد؟

أم تراها تبحث دون وعي عن العائلة كما يملكها الكل سواها!

زفرت بانزعاج وقررت أن أحادثها حين تصحو أن أحاول اخراج تلك المشاعر المنزعجة من داخلها كيلا تقضي عليها كمدًا!

كان يومي مرهقًا بالفعل؛ لكنني بعد خطوات بطريقي لسريري لأخذ استراحة محارب مستحقة قررت العودة والتوجه للمطبخ، وقد خطرت لي فكرة سترسم البسمة على وجه صغيرتي.

بعد حوالي ساعة، كانت رائحة حلوى القرفة (سينابون) التي تعشقها صغيرتي تعبق من حولي، كنت سعيدة فرائحتها تعني رائحة سعادة ابنتي، رائحة بسمة ثغرها، رائحة تلذذها بما تحب وليتني أملك أن أعطيها كل ما تحب وليس فقط شيء بسيط كحلواها المفضلة، تذكرت الصورة واختفت ابتسامتي وحلت ملامح الحزن مكانها، ليت الأمر بهذه البساطة..

قلت لنفسي بحزن، لكنني لن أستسلم!

رحت أرص قطع الحلوى بطبق مزخرف تحبه "شجن" مع كوبين من الشاي بالحليب وها قد حان وقت إيقاظ أميرتي النائمة، بصوت حنون هاديء ناديتها: حبيبتي يا أجمل الجميلات، يا أميرة!

فتحت عينيها الرقيقتين تحاول العودة لأرض الواقع مودعة أرض الأحلام.

وما إن رأت الحلوى، حتى هبت جالسة وقالت بدهشة، وهي تقاوم بقايا نوم علقت بأهدابها رافعة كفيها مكورين تدعك عينيها بهما: أمي هل صنعتي الحلوى لأجلي.

قلت مؤكدة أقاوم الضحك: أجل إنها الحقيقة وليست بقايا حلم.

نعم صنعتها لأجلك يا أميرتي لنأكلها سويًا في حفل شاي مميز للأميرات.

قامت تسبقني لمنضدة صغيرة نجلس عليها دائمًا لتناول الطعام، وهي تحثني للمجيء مشيرة بكفها الصغير المكتنز: هيا يا أمي.

جاورتها أرشف فنجاني وترشف عيناي من بهجتها المتوهجة ولكنها لمحت الورقة وعليها الرسم وكأنها تذكرت شيئا ما عكر صفوها فجذبت طرفها ناحيتها..

هامسة بتردد أمي..

أجبتها وأنا أستعد لتلقي ما أنتظره: نعم حبيبتي.

فأكملت متحاشية النظر لعيناي، وكأنها تحكي شيئًا عاديًا قائلة:

صديقاتي تقلن شيئا غريبا، أومأت أشجعها لتكمل فجاء صوتها كأنه من أعماق بئر سحيق بتساؤل:

تقلن أنك لا تشبهينني بينما كلهن تشبهن أمهن أو.. أو.

توقف قلبي مكانه توقعًا لهول ما ستقول على قلبها الصغير، لكنها كانت تكمل ببساطة كمن يسرد حكاية لا تفتقد لعنصر التشويق هامسة: أبيهم.

ثم استجمعت شجاعتها من صمتي المنصت، لترفع صوتها مكملة:

لما ليس لدينا أسرة؟

أب وأم وأخوة أو أخوات أو كلاهما؟

رفعت وجهها في حماس مكملة:

أيمكننا أن نشتري واحدة؟

جاوبها صمتي التام، وفمي المفتوح بذهول!

فأعادت: هل يمكننا؟

كان شيء من العصبية تسلل لصوتها، وراحت تعبث بأصابعها في شعرها الأحمر المنثور حول وجهها، فحاولت التحدث قبل أن يسوء الوضع أكثر أبذل جهدا لأرتب كلماتي بعناية:

نحن عائلة مميزة!

تحتوي كلانا فقط!

كما حكيت لك من قبل كل طفلة لها أب وأم لم تختارهما، ولكنك محظوظة، فغير أبيك وأمك لديك أم اختارتك لتكوني نور حياتها وهي أنا!

قمت أحاول احتضانها لكنها تملصت برفق مكملة بعناد.

لكنني لم أراهما!

قلت برفق: لكنهما أحباك يومًا وأنا أحببتك أكثر، وقبلوا أن تنيري حياتي.

أحضرت ورقة أخرى كنت جهزتها من قبل وبعض أقلام ألوان، وزينت أطرافها بقلوب ملونة بألوان مختلفة.

قلت لها مشجعة: تعال نرسم سويًا الآن، لمعت عيناها وأومأت موافقة بسعادة متناسية كل ما جرى أو هكذا اعتقدت!

هل أحبت تجاوز الفكرة معي؟

حينما كلمت "عادل" قال أن هذا كان طريقتنا معا للهروب، وأوا منحدر الهروب الخطير!

يبدو أن هذا ما جرى وأخذنا نرسم معا صورة لي بملابسي البيتية الحالية أجلس على الأرض وبجواري هي بملابسها.

تركز كل منا في تفاصيل الأخرى وتضيفها، فنضحك لكل تفصيلة صغيرة، لكل شيء بدا مختلفا قليلا بشكل ساخر!

ربما أتدخل مساعدة إياها في رسمي، أو أضيف تفصيلة ما، وأحيانًا تفعل هي العكس معي وأنا أرسمها.

حولنا كان أشياء من البيت، تفاصيل بعض الأثاث، وفرش الأرض بشكل مجمل.

بعض الحلوى التي تشاركناها، وفنجاني مشروبنا الساخن.

النتيجة كانت مبهرة!

ليس لأننا فنانتين لكن لأننا جسدنا أثمن ما رزقنا الله أسرتنا الصغيرة جدا!

كنت أوقن أننا نحتاج أن نركز على ما نملك لئلا ننسى كم هو ثمين!

حتى لا تجرفنا الحياة، وتتشتت نظراتنا في تساؤل، كم فقدنا ونشعربأننا أقوياء ببعضنا البعض، تشد كل منا عضد الأخرى في مقابل كل منحنيات الحياة، هذا ما حاولت زرعه بداخلها يوما بعد يوم.

نعم أنت يا صغيرتي كنت بؤرة نور في وقت فقدت فيه كل ما يعينني على الأمل، كنت كل ما يشجعني في إكمال طريقي في الحياة وقتما بدا لي أني خسرت كل شيء.

احتضنتني "شجن" بسعادة غامرة قائلة: أنا أحبك يا أمي كثيرًا.

كان كل شيء مبتسم في وجهها، لكن عينها مازال فيها ذاك البريق.

مازالت هناك كلمات محتجزة بداخلها، ظننتها ستتلاشى مع الوقت!

أغمضت عيني قائلة بمرح مصطنع تماما فداخلي كان وحش القلق عليها طاغيًا يمزق أحشائي لكنني حاولت صوغ الكلمات بعناية لتؤدي الهدف المطلوب منها.

أنا أسمعك كأنني أنت، قولي ما يدور داخلك وكأنك تحدثي نفسك تماما وبعدما تنتهي جلستنا، سننسى كل ما قلنا وكأنه لم يحدث، لكن أمسكي كفي بكفك.

اقتربت وبدا أنها أحبت الفكرة، ومدت أصابعها المرتجفة من الفوضى داخلها لتمسك كفي كما يتمسك الغريق بقشة، قبضت بأصابعي على أصابعها بقوة حب لا تنضب وانتظرت.

بضعة ثوانٍ يبدو أنها كانت تلملم شتات حروفها حتى بدأت تتحدث فقالت:

أنا أحبك يا أمي وأعرف كم نحن أسرة مميزة معا.

أرى تفهمك لكل ما أقول، وأفعل اهتمامك بكل شيء، بحب وأعلم صديقات لي لا تفعل أمهاتهن وأبائهن (الحقيقيين) ربع ما تفعلين معي!

الحقيقيين!

ارتعد كفي من وقع الكلمة فصمتت؛ ابتلعت ريقي مع الكلمة الثقيلة بصعوبة، ولكن من قال أن طريقي مفروش بالزهور؟! من الواضح أن هناك أشواكا ستنزع أجزاء من روحي معها.

لكنني شعرت أنها أوجعتني حقا!

ثم أردفت بعدها وليتها سكتت: ربما أشبه أبي فيجعل ذلك الأمر مقبولا.

انسكبت دمعات الألم لوجع صغيرتي على خدي فمسحتها فورا بأصابعها المرتعشة متلعثمة: أمي أنت قلت لن تحزني!

قلت أنني أحدث نفسي وأنك ستنسين كل ما قلت.

شدت كفها من كفي ففتحت عيناي لأجدها تغطي فمها بكفها في إشارة للصمت كيلا تؤذيني!

قلت غاصبة ابتسامة: أنا بخير فقط أوجعني ما أوجعك.

أتعلمين؟

من الممكن أن نبحث عن أبيك وأمك، ربما يجب أن تقابلهم كل حين، ويكون لك صورا معهم تريها لصديقاتك.

قالت بلهفة قتلتني: حقا؟

وعدتها وقتها مؤكدة: بالطبع هذا ممكن جدا لكن سيحتاج بعض الوقت والبحث لأن الأمر من وقت طويل، لكن أعدك أن أجعلك تلتقيهم يومًا ما هل سبق ووعدتك وأخلفت؟

أجابت بثقة دون تفكير: لا.

عاشت صغيرتي على هذا الوعد لسنواتٍ ولَم أنفذه أنا، خشيت لقاء هذا الوالد خشيت عليها كثيرا منه، وتلك الأم المكلومة كانت إبرة وسط كومة قش، كيف لي أن أجد أما لا أعرف حتى اسمها ولا مكانها؟ ربما تسكن محافظة بعيدة لم أراها قبلا!

هل شعرت "شجن" بالخذلان بمرور كل تلك السنوات، وعدم تحقيق الوعد؟

هل هذا سبب عودة هذه اللمعة في عينيها؟!

هززت رأسي، أرتشف من كوب الشاي الساخن بالقرنفل ليساعدني على ترتيب أفكاري، وعلى الشاشة أمامي كانت صورته بعدما كتبت اسمه في محرك البحث.

رجل غليظ الملامح، يملك كل الثقة في نفسه رغم كل شيء، يملك النفوذ والمال والسلطة أيضا..

كما يحكي؛ حسابه الرسمي على وسائل التواصل السيد: (محمود الشهراوي).

لقطة (٤)

لا أحد يختار أهله..

هي جملة طالما استشهد بها البعض هاضمين ومبررين ما يختلفوا فيه مع ذويهم من أراء وأفكار ومواقف، والكمال لله وحده.

لكن الأصعب، هي مقطوع من شجرة، أن تكون ورقة شجر لا تدري من أين انحدرت لا تملك أي جذر، أي ذكريات فيكون الطريق للمستقبل صعبًا مبهمًا مخيفًا؛ بقدر ضبابية الماضي المقيتة.

الفصل الرابع

رسالة تأخرت كثيرًا

"محمود الشهراوي"

كتبت الاسم في محرك البحث لتتراص أمامي الكلمات والصور في تسارع يوازيه تسارع دقات قلبي في وجل، كنت أنظر للصورة وأفكر، هذا الرجل بكل ماله ونفوذه، هل يمكن وضعه في كفه وأنا وصغيرتي -التي كانت يوما صغيرته- في كفه ويتزن الميزان؟!

أهي مواجهة معقولة أو مقبولة، أو تحمل أي منطق من الأساس؟

هل تمثل رغبتنا باللقاء له شيئًا، أم تفتح باب ريحٍ لا يمكنني سده؟

نعم لقد بحثت منذ زمن عنه، بل لطالما تابعته من بعيدٍ، عالمة كل جديدٍ عنه، وعن زوجته وأطفاله، وصورهم تتصدر كل جريدةٍ كأسرة مفعمة بالحب، ناسيًا أو متناسيًا، لا أدري شيئا ناقصا، ربما ليس مهما كثيرا! ابنته الكبرى التي هي عندي.

أرسلت الرسالة في وقت استراحتي بكافيتريا المستشفى، مستغلة خلو وهدوء المكان للتركيز، وقد حسمت أمري يجب أن تلتقيه ولو مرة، من

حقها أن تملك ولو صورة واحدة وحيدة بلا ذكريات معه، تنهدت بأسف، هذا إذا سمح لنا بذلك.

رغم صعوبة الأمر لكنني مضطرة لخوضه؛ بعدما أجلته كثيرًا، وبدأت أرى آثار هذا التلكؤ المدمرة لصغيرتي.

فهل يساعدني أن تكون "شجن" بخير ولو بشيء بسيط من نفسه يهبه لها؟!

جزء لا يذكر منه يعيد لها توازنها النفسي؟!

نص الرسالة كان أمامي على الشاشة بخط واضح كوضوح طلبي:

ابنتك "شجن" عندي، نعم تلك الفتاة التي تركتها بالملجأ، لا أريد منك أي شيء فهي ابنتي..

ربما تلتقيها مرة او مرات حسبما يسمح وقتك، فهي تحتاج ذلك حقًا لتستطيع المضي في طريق حياتها مرة أخرى، هذا رقمي للتواصل.

أغمضت عيني وجمعت كفي أغطي بهما وجهي زافرة بتوتر، ها قد أرسلت الرسالة رغم ألمها كسكين في قلبي، لكن الأمر انتهى، لأي حد صعب هو أن أطلب منه هو ملاقاة بضعة منه، لفظها ولم ينظر خلفه؟

لكنني مضطرة ما دام قلب صغيرتي لن يهنأ إلا بالعودة للجزء المؤلم في الحكاية.

نحتاج فتح جرحها العميق كما قال دكتور "عادل" تنظيفه وتطهيره بالوجع بملاقاة الحقائق ومساندتها لتمر من ذلك كله، وتعود لحياتها مرة أخرى بروح كوتها نار الحقيقة وزال انزعاجها من تشوش الماضي.

أجفلني صوته فأخرجني من لجة أفكاري:

(السلام عليكم ورحمة الله)

أغلقت جهاز الكمبيوتر المحمول بعنف كمن ضبط متلبسا، لاحظ ذلك عادل فتراجع خطوة للوراء في دهشة معربا عن قلقه:

هل هناك مشكلة ما؟

هل أعود في وقت لاحق؟

حاولت تبرير موقفي السخيف؛ قائلة بلهجة حاولت أن تكون عادية:

لا.. لا شيء كنت فقط مشغولة بأمر ما.

سمح لنفسه بالجلوس على المقعد المقابل قائلاً بهدوء: مررت فقط لأطمئن منك على "شجن"، فأخبروني أنك هنا.

قلت بسرعة تظهر كذبي جليًا: هي بخير حال.

قال مستفسرا:

هل بدأت باتباع الخطوات التي أوصيتك بها؟

أومأت مؤكدة: نعم بالطبع، أسير على نصائحك حرفيا، ولكنني لم ألمس تغييرا بعد.

أكد بثقة: يحتاج الأمر الكثير من الوقت والعناية، سأبدأ معها أولى الجلسات قريبا.

شكرته لدعمه وانتظرت أن ينصرف، لكنه بدا مترددا في قول شيء ما ثم يبدو أنه قرر قوله لينهي الأمر:

ربما يمكننا تحديد موعد قريب نلتقي به في مكان مناسب وتلتقي "شجن" و"ملك" و"مالك" أطفالي، أحتاج أن أساعدها بشكل ضمني وليس مباشر في عيادة وما شابه طوال الوقت.

قلت بتردد ظاهر وأنا أتشاغل بترتيب شيء وهمي أمامي: لا أدري هل يسمح الوقت حاليا بهذا، أعطني بعض الوقت، ربما بعض مقابلات بالعيادة تحل الأمر!

كنت ناضجة كفاية لأستوعب محاولته ضم أسرتي وأسرته في إطار تعارف، ولم تكن أمواج حياتي المتقلبة مؤخرا تسمح بهذا المخطط الذي يسير نحوه بتمهل وحزم في ذات الوقت، لذا رأيت غلق الباب من البداية أيسر.

كلماته التالية نجحت بقوة أن تلفت كامل تركيزي، وأهب واقفة حين قالها بثقة وهو ينظر لوجهي بإصرار واضح واعتراف شديد الصراحة..

عدت منذ عدة أشهر من الخارج، توفيت زوجتي رحمها الله، وها أنا أناضل في تربية طفلاي مع عملي بالمشفى، لا يبدو الأمر سهلا، أليس كذلك؟!

مع نهاية كلماته، كان ظل ابتسامة حزينة يظلل شفتيه.

هل كان يحاول أن يقول لي أنني لست وحدي المحتاجة المساعدة؟

قلت بتعاطف حقيقي: لا يبدو سهلا أبدا!

شجعه ذلك ليكمل: ساعدتني دكتورة "ألفت" معطية إياي رقم هاتفك ومكان عملك، لا بأس ببعض المساعدة المتبادلة لكلينا صحيح؟

قلت وقد انتهت قوتي تقريبا للمقاومة معلنة ضعفي: نعم ربما.

وقفت فجأة أفرغ كل ما أملك من توتر في وجهه، مكملة بصراحةٍ مثله:

كانت حياتي هادئة وبسيطة لفترة طويلة، بنيت أسرة جديدة وعالم متزن أحبه بين عملي وابنتي، لم أعد فتاة العشرين ربيعًا التي كنت تعرفها!

للأسف حياتي حاليًا تحتاج بعض الترتيب مع ظروف "شجن" الأخيرة، تجابهني مشاكل تحتاج كل طاقتي لحل كل هذه الفوضى!

نهض محاولا تهدئة قلقي: ربما اثنين يحلان المشكلة سويا بعزم أقوى، فقط اشركيني معكِ، وأنا مستعد لمقابلة تلك المشكلات كلها، فلم أعد

أيضا ابن العشرين قليل الخبرة بالحياة، ربما أكون سند تحتاجيه وتكوني سند أعترف أنني أحتاجه!

قلت بمزاح ثقيل استسفته بعد النطق به ورؤية أثره على وجهه: ربما إلتقاء طرقنا ثانية أول المشاكل الجديدة وأعقدها!

استدار مستأذنا بالانصراف متعللا بوجوب عودته للبيت قائلاً: يحتاج الأمر لوقت أطول للتفكير، بالمناسبة أتفهم موقفك جدا وما تَمُرّينَ به، أنا هنا متى احتجتِ أي شيء.

اقترب واضعا بطاقة باسمه ورقمه على طرف الطاولة وابتعد.

ما إن انصرف من أمامي حتى خمدت نيران قلقي فجأة باختفاؤه، وكأن دلو من الثلج انسكب فوقي، وتمرد قلبي بشكل غريب، صار ينبض بشفقة تجاهه يلومني لعدم تقدير اهتمامه؛ بل حتى تجرأ ليعلن أنه مازال يحمل بعضًا من مشاعر قديمة، يبدو أنني لم أنتبه لها بما يكفي قبلاً.

لم يكن ينقصني صراع آخر داخل جنباتي!

كان الأمر مفاجئا لي شخصيا؛ أن اكتشف أن قلبي مازال يعمل وقادر على الحب، بعدما ظننته عطب بعد تجربة فاشلة، وسنوات عقبها أهلّت عليه فيها بمشاغل كثيرة فلم يكن لديه فرصة ليدق.

لماذا الآن والأمور كلها لا تسمح بهذه الدقات التي نسيت مذاقها منذ عهد سحيق؟

تنهدت بألم داعية الله أن يلهمني الصواب، ولملمت أشيائي ومعها روحي استعدادا للعودة للمنزل.

وفي الطريق للعودة للمنزل بسيارتي، استمعت لي "ألفت" بتركيز شديد ويدها تقوم بعملها في رحلتها من كيس اللب لفمها ثم بالقشر مرة أخرى في تناغم عجيب، ثم اعتدلت فجأة مقاطعة إياي: بالطبع لا أوافقك يا "منال".

دكتور "عادل" لا يستحق منك ذلك أبدا!

حاولت التظاهر بالتركيز على الطريق قائلة بانزعاج: دعينا نتفق حياتي لا تحتمل هذا الضغط الذي يشكله وجوده حاليًا!

أحسست لوعة قلبي ورفض عقلي في آنٍ واحد، وعاد صوت "ألفت" بحنان يهدّيء من روعي ويستنكر بصبر نافذ: أنت تتوهمين يا غاليتي بالتأكيد..

انظري بعين الواقع لا الخيال!

اسمحي لي بمواجهتك...

أنت تعيشين وحيدة مع طفلة مسكينة جلبتها تؤنس وحدتك وصدقت أنها تكفي، لكن الواقع أنك أنثى تحتاج زوج دون شك!

و"عادل" فرصة عمرك تضيعينها مرة أخرى؟!

كلاعب يوشك أن يحرز هدف النصر بآخر دقيقة لكنه يتردد حتى يفوت الأوان؟

كدت أحسبها ستقذفني بما في كفها مع آخر جملة: لا أرى الرجل يضغط عليكِ أبدًا بأي شكل، هل تريدين أن تعرفي كيف يضغط الرجل فيدمر حياة حلوة بين اثنين؟

اعتدلت لتسكب من حر ألم قلبها ما ناء به دائما، واشتكته طوال سنوات معرفتنا قائلة:

حين يصر على السفر بعيدا لإحضار بعض حفنات إضافية من المال، يبيع السعادة التي لا ثمن لها بهكذا ثمن، حين تمر السنة وراء الأخرى وزوجته تنتظر يوم يعود، تتململ وتشكو، فيرد بجفاف أنها تتدلل، حين يكبر الأطفال وترتسم مشكلاتهم يوما بعد يوم، لكنه مازال متشبثا بحبل وهم الاحتياج للسفر، زالت كل ضرورات السفر، لكنه تأقلم في هذا القالب فلا يريد العودة أصلا، جفت وتشققت العلاقة بينه وبين أسرته، وهو مطمئن البال أنه يبعث أوراق (البنكنوت) شهريًا، أما "عادل" فإنه نعم الرجل، لولا رأسك اليابس!

زادت عصبيتي وأنا أهتف بلسان عقلي علي أقنعها أو أقنع خافقي: لن أهدم عالم شجن الهش...

لن أدعها ريشة في مهب الريح، لا يمكن أن أدع هذا يحدث!

لن أبني حياتي فوق ركام حياتها!

لملمت "ألفت" أشلاء قشر اللب غير مأسوف عليه مؤكدة وهي تراقب.

الطريق أمامها: "شجن" تحتاج أسرة مكتملة مثلك تماما.

رمقت عدم اقتناعي الواضح على وجهي مكملة: ستفيقين يوم يمل ويتركك، يوم يكف عن المحاولة وقتها ستعرفين قيمة ما فقدت.

حاولت السيطرة على كل الأفكار والخواطر التي صارت كدوامة شرسة تمزق داخلي دون رحمة متمتمة: ليت الأمر بسيطا كما ترين!

أكملت طريقي للمنزل بعدما أوصلت "ألفت"، كنت أقود شاردة؛ لكن طنين الهاتف المحمول المتواصل جعلني أفكر أن أرد رغم أنني لا أحب أبدًا فعل ذلك أثناء القيادة، لكنها كانت أمي، ولابد أن الأمرهام لتكرارالاتصال بتلك الطريقة فجاوبتها: السلام عليكم أمي.. كيف حالك؟ اشتقت إليك حقا!

أجابت بصوتها الطيب: وأنا أكثر يا ابنتي الغالية اشتقتك كثيرا.

قلت وأنا أفكر أنها فرصة جميلة لزيارة منزل الأسرة بنهاية الأسبوع التي ستساعدني كثيرا على التخلص مما أشعر به من ضغط، أنا و"شجن" كنّا ننوي زيارتكم آخر الأسبوع وتكون فرصة طيبة لجلسة عائلية معكم.

كنت أرتقب ردها إن كان الوقت مناسبا أم لا، لكن ردها فاجأني تماما حتى أنني كدت أصدم السيارة التي كانت أمامي فقد كانت تقول ضاحكة:

أنا أنتظرك ببيتك هنا و"شجن" بجواري، نتبادل أطراف الحديث مع أحلى كوب شاي من صنع حفيدتي المفضلة.

حاولت المرور بمحل الفاكهة لأحضر ما تحب منها، ومحل للحلوى لأجل حلواها المفضلة، فحضورها مناسبة سعيدة لا تتكرر كثيرا لصعوبة السفر مع سنها الكبير.

فتحت باب المنزل مرحّبة وقد نسيت كل شيء: أمي الغالية يا ألف أهلا ومرحبا.

كانت جالسة وقد نامت "شجن" ورأسها في حجرها، ويد أمي تمشي على شعرها بحنانٍ محبب فأقبلت أقبّل كفّها ورأسها؛ أستعيد عبق حضورها في حياتي الذي لطالما حرمت منه بسبب وجودي بمدينة أخرى.

جلسنا نتناول الأطايب، وفي عينها فرحة أنني مازلت أذكر ما تحب واهتم لفرحتها، أخذتنا الأحاديث هنا وهناك حتى ساد الصمت للحظات، ومن بين تذوقها لحبات العنب التي هي أثيرتها من الفاكهة قالت: يا بنتي لن تصدقي من عاد بعد كل تلك السنوات!

رددت على مضض مغمغمة وأنا أعرف الإجابة: من لعله خير؟

قالت بسعادة: عادل، هل تذكرينه؟

قلت ضاحكة: نعم بل أسعدني الحظ والتقيته أيضا إنه يعمل هنا بهذه المدينة.

لم أخبرها طبعا أين التقيته لم أرد أن أثير قلقها.

أردفت هي بسعادة غامرة: التقاه أخيك حين جاء لزيارة بيت أهله جيراننا، معه طفلان.

ثم أكملت بلهجة ذات معنى:

ولكن زوجته توفيت رحمها الله.

ولما وجدت كلماتها لا صدى لها عندي قالت: وسأل عنكِ أخيكِ، فأجابه بأحوالك، لمّح أنه يجب أن تلتقيان، وأحسست بداخلي أنه يقصد مازال هناك نصيب بينكما.

بدا على وجهي الامتعاض.

فقالت بعتاب مشيرة لرأسي: فيه كل الخير، لولا خوفي من رأسك الصلب هذا وأن ترفضي تلك الفرصة كما أصررت على رفض كل من تقدم خلال السنوات الماضية.

هززت رأسي ضاحكة مفكرة ممن سمعت هذا الكلمات اليوم قبلا؟

كنت أبتلع لومها بمرارة إكرامًا لها، ولحضورها ولكونها أمي؛ لكن لأشد ما كان كلامها مرا في حلقي كالعلقم!

عقلي أنا الصلب؟

وهل يوم وافقت على من وافقت عليه، مع إلحاحكم وضعفي كانت النتيجة خيرا؟

لأحمل عقلا صلبا وأتمسك به!

نعم ليس أولى من قرارت ثمنها حياتي مني أحد!

يبدو أنه رغم صمتي إلا أن تقاسيم وجهي أوصلت لقلبها الرقيق ما أعاني، فعدلت من وضع "شجن" على الأريكة وأسندت رأسها واقتربت منِّي تحاورني بكياسةٍ وحنان:

أنت ابنتي الوحيدة يا "منال"!

تركتك خمسة عشر سنة تجترين تجربتك رافضة أن تنسي ما جرى وتخرجي منها، وكدت أيأس أن أرى لك حياة أفضل، لكن عودة "عادل" أنبتت في قلبي الأمل؛ يحبك ونعرفه ويناسبك حقا!

صمتُ أفكر، أحيانا يجمع الناس من حولك على أن قرارا ما هو الصائب لك، يكادون يقسمون على ذلك فهل يكون هذا كافيًا ليدعمك في اتخاذ قرار تخشينه؟!

لقطة (٥)

قد لا تكون شجاعا بما يكفي، أو هكذا تعتقد طوال حياتك متجنبا كل الصدامات مسالما قدر المستطاع، لكنك في لحظة فارقة في حياتك تحتاج أن تجابه الأهوال وتتخذ المواقف محاربا ومدافعا بكل قوتك عن شخص تحبه، حتى أنك بعدما تهدأ الأوضاع وتنسحب جرعة الأدرنالين الزائدة من جسدك، تتساءل هل حقًا كنت أنا من فعلت كل هذا؟ مقسما أنك ربما لو كنت تدافع عن نفسك ليس عن هذا الشخص؛ ما كنت حملت ذلك القدر من الشجاعة والمخاطرة!

الفصل الخامس

لقاء مختلف

في وقت الاستراحة بالمشفى جلست مقابل "ألفت" كعادتنا دائما، نتناول ما يسد رمقنا لباقي اليوم ساندويتش بسيط، معه كوب من الشاي أو القهوة.

شرعت "ألفت" تتحدث عن رأيها بصراحةٍ كالعادة، بعدما سمعت قلقي من تكرار طرح أمي لفكرة الزواج من "عادل"، بصراحةٍ يا "منال" أنت تحيطين الأمر بكثير من القلق والانزعاج والأمر أيسر من ذلك، صدقيني...

بلعتُ كلماتها مع اللقمة التي أمضغها راشفة بعض الشاي علّه يسهل ابتلاع الأمر، ثم وضعتُ الكوب أمامي مغيّرة الموضوع بكياسة: لقد أرسلتُ رسالة لوالد شجن، لا يمكنني تجاهل رغبتها أكثر، وأخشى أيضا مما سيجره ذلك عليَّ وعليها.

رسمتْ الدهشة ملامح "ألفت" المرتاعة وقالت: حقًا؟!

ثم استدركتْ قلقها العفوي محاولة بثي ما يدعوني للصمود في مواجهة ما تدري أنني أخشاه منذ فترة فقالت مطمئنة: لا أعتقد أنه

سيسبب إزعاجا، الازعاج سيضره هو قبل أن يضرك وهو شخص معروف وله سمعته.

أومأتُ مؤكدة: فعلا هذا ما أتمناه وأعتقد أنه سيفعله غالبا؛ فلا وقت لديه ليضيعه معنا، على أية حال لا أعتقد أنها تملك صورة رقيقة حنونه عنه.

قالت ألفت وقد التبست ملامحها الشفقة والانكسار: مساكين أبنائنا، لم يعرفن الأب الحنون الطيب.

ارتسمتْ على وجهها السعادة الغامرة فجأة، وهي تكمل بحماس: كان أبي متوسط الحال لكنه كان حين يدخل المنزل كأن العيد وصل ببهجته وفرحته، نتسابق إليه نحتضنه ويقبلنا متشمما إيانا، يسأله كل منّا عن ما طلبه منه، فإن كان الطلب سهلا قادرًا على إحضاره أخرجه؛ فتعالت صيحات الفرح، وإن كان صعبا عليه وعد بإحضاره قريبًا أو ألهانا عنه بشيء آخر أحضره ليسعدنا.

بينما أمي بجوارنا تزجرنا عن الإكثار من الطلبات وإزعاج "بابا".

ضحكتُ متخيلة "ألفت" الصغيرة بالتأكيد كانت طفلة مشاكسة، كما تحكي ملامحها، فقلت عابثة: وأنتِ كنتِ الطفلة المشاكسة بالتأكيد يا لفرحة والدتك بكِ.

ضحكتْ واضعة كفها على فمها: كنتُ هادئة جدا، ليسامحني الله.

ثم أكملتْ بفخر رافعة حاجبها مغمضة عينها، كأنها تعود للحظة التي تحكيها متقمصة روح والدها: لا أحد يزعج" ألفت" دكتورة "ألفت".

قلتُ ساخرة: دكتورة منذ الصغر!

تحوّل وجهها فجأة، وقد بدت لمعة الدموع في عينها: نعم كانت كلمات واهتمام أهلنا تعني الكثير، الكثير الذي أعجز عن تقديمه لأطفالي الآن؛ فيد واحدة لا تصفق.

أكملتْ بحماس يزوّده ألمها: بعض الأشياء لا تُشترى حقًا، مهما اشتريت لأطفالي، هذه الأشياء مهما غلا ثمنها لا تزيد من دفء المنزل، لا تعطي جو الأسرة الذي طالما تمنيته.

زفرتْ رافعة أناملها تطارد دمعة متمردة_ كنت أفهم سبب انطلاقها ولا ألومها أبدا_فتحت فمي ناوية قول ما يخفف عنها، لكنها سبقتني وقد عادت لحالتها المرحة سريعا: وها أنتِ تتدللين رافضة الدفء الأسري، وكزتها غاضبة وقطع طنين رسالة _وصلت هاتفي_ حديثنا، تلمسته هاربة من أي بقية للحديث، وكان فيها مفتاح البداية أو النهاية لا أدري...

غدا سأحضر.

ووجه ضاحك أخافني كثيرا.

أوقظَ كل قلقي وانزعاجي، شعوري بالضعف كأنثى شعوري أنني أحتاج سند حقا!

هل أملك أي شخص يمثل حائط أمان يقيني مثل تلك المواقف الحرجة؟

هل أملك رجولة أحتمي خلفها في النوازل؟

لا؛ تلك هي الإجابة، بكل صراحة ووضوح مع نفسي!

لستُ رجلا، ولن تكون أي امرأة كذلك!

نعم نحن ندّعي ذلك!

ونرسم ملامح صلابة لا نملكها وخشونة لا تنتمي إلينا؛ ليكونا حائط سد منيع لنا ضد أي محاولات هجوم علينا!

عدتُ لعملي محاولة تناسي قلقي من اللقاء المرتقب.

وعند عودتي للمنزل، أكملتُ يومي بتفاصيل مغرقة بحنان أمي ووجودها الذي طغى على كل شيء؛ إلا وخزة قلق من حين لآخر بخصوص الزائر المنتظر غدًا.

في وسط أحاديثنا _ بعد عودتي للمنزل _ ومع قطع الفاكهة كنوع من التسلية سألتُ أمي بحذؤ: إلى متى ستكونين معنا هنا يا غالية؟

"بصراحةٍ" بدأت أدمن حضورك الدافيء ووجباتك الشهية.

قالت أمي بابتسامة وصلت لعينيها المشعتان طيبة:

حتى اطمئن عليكِ.

فعلت كلمتها في قلبي الأفاعيل، أهو قلب الأم الذي يشعر بما يمر به أبناؤه؟!

لكنني دثرتُ وجعي بضحكة مبالغ فيها يبدو أنها لم تخدع عينيها قائلة:

لم أظن أني فتاة صغيرة تخشين عليها!

فما الجديد!

قالت بذات الابتسامة مع نظرة عين متفحصة أقلقتني:

لم تردي عليَّ بموضوع "عادل" متى تجلسانِ سويا؟

كانت داخلي فوضى كبيرة وأشياء وأحداث لا تعرفها أمي، وخشيت أن أرهقها بها، ماذا أقول لها؟

كلما رتبت حياتي حاليًا تزداد الفوضى على ما يبدو، أحاول رسم ابتسامة رصينة وأتحدث بتمهل لأواري موجات عدم اتزاني في هذا الخضم المتنامي!

أجبتُ باقتضاب وقد قررتُ مصارحتها لتستريح:

نعم سنتحدث لكن ربما بعد يومين، فقط أحتاج لإنهاء أمر ما.

لم تضغط عليّ أمي أكثر بل سعدتْ لمجرد أنني وعدتها بالتفكير في الأمر.

وبقي "هذا الأمر" ما يشغلني طوال الليل رغم انزعاجي منه؛ لكنه مهم لاستقرار حبة القلب شجن والتي يهون لأجلها كل تعبٍ.

هذا الأمر؛ ظل عنوان ليلتي وصباح يومي حتى عدتُ للمنزل في انتظاره، فتحت باب الشقة أدعو الله أن يمر الأمر على خير، فاستقبلتني روائح طيبة ذكّرتني أن "ست الكل" هنا ويبدو أنها وضعت بصمتها على مطبخي المسكين _في العادة_ مع كثرة انشغالي لكنه يتدلل الآن كأهم مكان بالمنزل مع كل تلك الأطايب بداخله.

توجهت إلى المطبخ ففاجأني المشهد وأمي تقول بصبر_ وكأنني عدت لمطبخ أمي وجلستي وأختي أمامها في مثل هذا المشهد من سنوات طويلة_

نعم، هكذا يا عزيزتي أحسنتِ لقد صرتِ بارعة!

كانت تُشيد ب "شجن" التي يبدو على وجهها تركيز شديد، وكأنها تقوم بعمل خطير وهي تلف "إصبع المحشي" كما علّمتها أمي.

لم أستطع كتم ضحكتي أكثر فانفجرت مجلجلة بالمكان معلنة عن وصولي، فطالعتني نظرة "شجن" محذرة من أن أكون.

أسخر منها فرفعت كفي مشيرة لها أن أحسنتِ صنعا قائلة:

واضح أن وليمة مميزة تنتظرني من أيديكم؛ لتقول أمي مؤكدة بحب وحنان وعينها تحتضنان "شجن"، طبعا من يدي شجن الجميلتين أنا فقط علّمتها.

على طاولة صغيرة بطرف المطبخ جلستُ وأمي وشجن سويًا نتناول وجبة ساخنة، تعلو وجه شجن إمارات الفخر والثقة، أنا!

تتجاوز قائلة: وجبة مثل هذه أحيانًا، لم تكن مجرد طعام عادي نتناوله لاستمداد الطاقة، بل مشبع بطاقات أخرى ربما نحتاجها أكثر؛ طاقة حب وشعور أسري دافيء يجمع بين أمي واهتمامها الفطري الذي يقويني ويربطني بماضي طفولتي بين يديها، وبين صغيرتي الجالسة بجواري بسعادة قلما شاهدتها على وجهها على مر السنوات.

وجبة تجمع نكهة الذكريات وطعام أمي الشهي، وشغف التجربة الجديدة بيدي "شجن" الفخورة بما صنعت.

فيم شردتِ يا دكتورة؟

قالت "شجن" بمشاغبة لافتة نظري كم بعدت عنهم.

لأعود للواقع مصطدمة بالحقيقة قائلة بحذر:

معك يا حبيبتي.

أود إخبارك أن لدينا ضيف مميز اليوم مساءً.

ظهرت ابتسامة على وجه أمي الطيب صعّبت عليَّ مهمتي أكثر، لكنني تابعت بإصرار طبيب يصر على فتح جرح مؤلم طال الزمن عليه والمعاناة منه ليلتئم بشكل صحيح، ليعيش المريض بعدها بشكل أفضل؛ فضغطت على حروفي أتحاشى نظراتهن المتسائلة مكملة:

نعم والدكِ يا "شجن" طلب ملاقاتك اليوم، هنا في منزلنا.

تلوّن وجه أمي بمئة لونٍ، إلا لون السعادة وغاضت ابتسامتها لتقول بصوتٍ قلق مصدوم:

والد "شجن"!

بينما "شجن" على وجهها مئة شعور أيضًا، مئة فكرة، ومئة وجع، ومئة أمل حتى أشفقت عليها.

مددتُ كفي أدعم كفها تحت الطاولة ناظرة في عمق عينيها قائلة:

كنتِ تبحثين عن مكانه ومكان أمكِ صحيح؟

كان هذا سبب "انزعاجك، عدم ايجاد أسرتك"؟!

لم أشاء قول "محاولة انتحارك" حتى لا أوجعها وأوجع نفسي.

ثم أكملتُ بإصرار:

نعم، حقك أن تلتقيهم؛ بل ويكون هناك تواصل دائم بينكم هم أهلك يا حبيبتي، لكنكَ نسيتِ في خضم بحثك أنني أمكِ، وأنني أفهمكِ وأنني خير من يوصلكِ لما تتمنين!

احمرَّ وجه "شجن" خجلا زادها جمالا محببا وتاهت كلماتها فصمتت، وقامت أمي تلملم الأطباق منسحبة كعادتها حين تغضب لا تتكلم مباشرة.

ثوان وانسحبت "شجن" لغرفتها تلملم مشاعرها وأفكارها وتستعد لذاك اللقاء المرتقب.

بينما أسندتُ وجهي على كفي على تلك الطاولة الفارغة أمامي أرتب أفكاري وحدي.

لقطة (٦)

بعض اللحظات تكون هامة وفاصلة في حياتنا، ما بعدها مختلفا تماما عن ما قبلها.

ترسم بداية لمرحلة جديدة، تسدل الستار على سنواتٍ مرت، واضعة لكثير من الظنون والأفكار، بل حتى للمشاعر والآلام التي عبرناها نهاية، ليبدأ بعدها عهد جديد رجوناه أكثر وضوحا، أكثر تصالحا مع النفس، نخطو بثقة بعدها للمستقبل وقد أغلقنا دفتر حسابات الماضي.

الفصل السادس

لقاء طال انتظاره

"شـجـن"

كنتُ أنتظر هذه اللحظة سنوات عمري كلها تقريبا!

كنت أعيش ببيتنا كأي طفلة، أزعجني علو صوت أبي في أحيان كثيرة زاعقا بوجه أمي الباكي، مؤخرا تفاقمت بشكل مخيف، ثم انتقلنا بعدها أنا وأمي للعيش مع جدي وجدتي.

كل حياتي تغيرت دون سابق إنذار، كنت أسأل أمي دائما، لماذا نحن هنا ولسنا في منزلنا؟

أين أبي؟

كان رد أمي بكاءً ونحيبًا واعتذارات لم تساعدني على الفهم.

لم أفهم أبدا لِمَ اختفى أبي؟

لما أمي دائمًا حزينة وأحيان أكثر خائفة؟

لَمَ جدي وجدتي ينظران لي بشفقة هكذا؟!

اعتقدتُ أنها أسوأ أيام حياتي حقا، كابوسًا بالتأكيد سأستفيق منه قريبا؛ فلا يمكن أن يكون الوضع أسوأ.

لكنني تفاجأت أن هناك ما هو أسوأ فيما بعد.

قالت أمي يوما وقد كان واضحا عدم اقتناعها بما تقول لعيني الصغيرتين:

"شجن" حبيبتي والدك يريد أن يراكِ، لقد اشترط أن يقابلك حتى يسمح لنا بالعودة للمنزل ما رأيك؟

بدا الأمر غريبا لِمَا تستأذنني أمي لرؤية أبي؟

لم يدع لي فرصة للتفكير كثيرا، لأنه حين جاء اشترط أن أنزل للأسفل فهو لن يصعد بيت عائلتها.

جلست أجاوره في سيارته، انتظرت أن يقول شيئا فنحن لم نلتق منذ وقت طويل لكنه كان صامتًا؛ فلم أدرِ لِمَ طلب مقابلتي في الأساس؟

توقعت أنه أحضر لي شيئا من الحلوى كما كان يفعل في بيتنا لكن يديه الفارغتين أكدتا أنه لا حلوى اليوم.

دون كلمة واحدة منه إليَّ خلال دقائق مكوثي معه، ولا حتى نظرة لوجهي الذي يراقبه، تحرك بالسيارة للأمام ببساطة، فارتعبت قائلة بصوت مرتعش هو أقرب للبكاء:

أبي إلى أين نذهب؟!

قال بلا اهتمام بما أشعر به وقد شاب صوته ضيق: لمكان جميل لا تقلقي.

لكنني في الحقيقة قلقت أكثر، فمنذ وقت طويل هجرتْ حياتي الطمأنينة حتى كففت عن تخيل العودة لما كنا عليه، فاندسست بمقعدي بقلق أقرض أظافري بعصبية أفرغ فيها ما أعانيه وحدي كما تعودت، دقائق ورن هاتفه المحمول، خمنت أن المتصلة هي أمي، فاطمأننت بوجودها معي ولو على الهاتف، ومع ثالث دقة للهاتف أجاب قائلا بنزق وقد تصاعد غضبه لدرجة أرعبتني:

نعم؟

فتح مكبر الصوت ليستطيع مواصلة المكالمة دون الإمساك بالهاتف، فانبعث صوت أمي منهارة:

أين ابنتي؟

أين أخذت ابنتي؟

من بين شقهقاتها المرتاعة أكملت...

أرجوك أرجوك أعدها!

لكن ضحكته العالية هزت حتى ذرات الهواء حولي مع انتفاضة جسدي التي لم يعبأ لها قائلا بصوته الجهوري:

لقد انتهى الأمر يا حبيبتي...

نعم أنتِ عاندتِ وخرجتِ من البيت وأنا صبرت على عنادكِ كثيرًا!

ألم يكن ابن عمكِ بداركم يطلب يدكِ من أبيك!

تزوجي يا عروس، وأنا تزوجت كما تعلمين من فترة.

قالت بهلع:

لا لا، لن أتزوج لكن أعدها.

ضرب بيده المقود بغضب جنوني فارتجت السيارة، وتصاعدت الأبواق لاعنة من حولنا، فأخرجتني من طور التجمد صدمة، فصرخت باكية وقد أدركت رغم صغر سني أنني بكارثة لم أعايش مثلها من قبل:

أمي.. تعالي يا أمي...

فردت عبر الأثير بلهفة محاولة تهدئة روعي:

"شجن" تعالي يا شجن لأمك لا تقلقي حبيبتي، أنا معكِ "شجن".

مددت كفي الصغير محاولة أخذ الهاتف الملقى، لكنه اعتصر أصابعي بغلظة حتى أفلته وندت مني صيحة ألم يبدو أنه لم يسمعها، فضغط بإصبعه الغليظ على زر إنهاء المكالمة منهيا كل شيء.

نعم انتهت كل علاقتي بحياتي تلك بعد دقائق؛ وصرت بالملجأ الذي بدأت منه حياة جديدة، حياة لا أنام بها بغرفتي ولا أصحو على صوت أمي، لا أرى فيها الأهل والأقارب والأصدقاء...

بل مجرد أطفال كُثُر حولي بمثل عمري أو أكبر أو أصغر، يزعمون أننا إخوة وأننا أسرة، لكنني أبدًا لم أصدقهم.

هل هذ الذي أذكره هو حقًا ما جرى؟!

أم أنه أحد الكوابيس المختلفة التي بت أراها كل ليلة، بعدها محاولة تذكر من كنت؟

هل اختلط عليَّ الأمر بين ما رأيته حقا في صحوي، وما كان في نومي في تلك السنوات البعيدة؟!

كل بضع ساعات كانت تأتي إحداهن لتجالسنا زاعمة أنها أمنا.

بعضهن كن لطفاء حقا، وبعضهن لا يحسن عملهن كأمهات بديلة لكن طبعا لا شيء عوّض غياب أمي الحقيقية.

ارتجفت قليلا مكاني، حين ضرب أحدهم الباب ليفتحه على وسعه بقدمه صائحا:

الباشا حضر.

فعدت للواقع متشبثة بالنظر لفوهة الباب بكل انتباهي، متسائلة: هل سأعرفه؟

هل سيبدو مألوفا لي؟

هل هو نادم على تركي في نوبة، غضب وخلاف أسري كان يفترض - لو تعقّلوا - أن يكون عابر؟

هل بحث عني يوما؟

هل سيغضب لعودتي؟

سيصب لعناته وكرهه لأمي على رأسي؟

هل حقا كان أبي هذا الرجل بالسيارة؟

كانت آلاف الأسئلة تطن برأسي؛ حتى أحسست أنني سيغشى عليَّ لكنني حاولت جاهدةَ التماسك، حتى لا أفسد كل شيء بعد كل سنوات الانتظار لظهور الحقيقة.

هذه لحظة فاصلة في حياتي، وأنا أدرك هذا تماما.

رؤيته أمامي أيقظت كل ذرة متحفزة بجسدي، هذا هو أبي، أنا واثقة الآن أنه هو...

ذاكرة الأطفال قوية للغاية حقا!

لا أدعي أنني كنت أتذكر شكله بدقة، ولا شكل أمي فصورتهما بهتت في ذهني مع الوقت، لكنني واثقة أنه يطابق الخيالات الباقية في ذهني حقا عنه، نعم لم يكن ذاك كابوسا إذن من إحدى كوابيسي، تلألأت دمعة داخل عيني مع إدراك حقيقة كادت تتوه بين ضباب السنوات.

تقدم بجسده الضخم وملابسه الباهظة الأنيقة بأريحية تامة، فوقفت أمي منتبهة كقطة تخشى على أطفالها، لكنه لم يكن يراها أو لا يهتم بأن يراها.

بقي اهتمامه منصبا عليَّ أنا...

ابتلعت ريقي ببطء وقلق وأنا أفرك كفي غير قادرة على مواجهة عينيه الحادتين المتفحصتين لفترة أطول، نعم أنا طلبت وتمنيت لقاؤه بل وبحثت عنه، وها قد جاء فبدا مستعدا للقاء وبدوت أنا بلهاء مشدوهة تائهة، كأنني أسمع صوت صراخي وبكائي بسيارته في أذني دون توقف.

أصبح حذائيه اللامعين أمامي مباشرة، فرفعت وجهي مضطرة ألتقي وجهه الذي أوجعتني رؤيته، فقال بصوت خافت مسرا كلامه بيننا:

ها قد التقينا أخيرا يا شجن.

نبرة صوته أزعجت خلاياي، فَصَمَتُ لا أحري جوابا، مكتفية بتكتيف ذراعي ضامة روحي إليَّ بقوة هشة أبديها أمامه حتى لا أنهار حرفيًا أمامه.

بحركة مسرحية مد كفه لجيبه جالبًا علبة بدت فخمة تدل على قيمة ما فيها، ولَم يطل تساؤلي فقد فتحها؛ فظهرت قلادة لامعة باسمي داخلها تزينها، عدة فصوص متألقة تحت الأضواء بشكل مبهر.

ندّت منّي شهقة وبداخلي علمت أنه استعد للقاء جيدا رغم ضيق الوقت، ربما لم تكن لديه كوابيس تزعجه، ولا أنّات سنوات تعجزه عن التفكير بشكل مرتب مثلي.

أمام صمتي ابتسم ابتسامة واسعة أظهرت أسنانه قائلا: ببساطة _كأننا كنّا نتناول العشاء سويًا بالأمس_

لم تقولي شيئا؟

ألم يعجبك ذوقي؟

أحضر لك أفضل منها لو شئت فقط أمري يا "شجن".

كان مشهد مسرحي هزلي بشكل لا يصدق، مشهد كتبه كاتب مجنون متطرف لا يمكن أن يصدقه العقلاء!

هربت من النظر إليه؛ أحاول أن أستمد القوة من أمي، كانت دمعاتها تنفلت ألمًا لألمي الذي يبدو أنه ظهر جليا على وجهي، وكأن حضوره دائما ما يجلب الدموع لمن أحب! كانت تمسحها بسرعة مكمّلة تجلّدها لأجلي مؤازرة لي بنظراتها المُحبة، نظرات تساوي ما هو أثمن بكثير من تلك القلادة الباردة.

جدتي تتلصص من خلف باب المطبخ بقلق، أراها من وراء ظهره تسرق لحظات وتختفي، وتحمل الهاتف بيدها تحاول الاتصال بأحدهم منذ جاءوا لمنزلنا لكن يبدو أنه لم يجيب حتى الآن.

كأن مئات عدسات المصورين تحوّطني تلمع أضواءها حولي، بدأت دقات قلبي تضطرب فحاولت التماسك راسمة ابتسامة لا أدري كيف بدت، ولَم تغادر كفّي مكانهما بجواري، فوضع "أبي" -ويا لوقع الكلمة!- كفّه على كتفي بأريحية تامة مكمّلًا بصوته الجهوري:

أنت فتاة مميزة حقا، استطعتِ الصمود وواصلتِ حياتك رغم كل شيء، ابنة أبيكِ وقوية مثله!

أنا فخور بكِ يا ابنتي.

بيد أن كفه بمجرد أن لامست كتفي؛ وكأن تيارا كهربائيا سرى منها بجسدي كله فانتفضتُ دون إرادة مني، شعر هو بذلك فأنزل كفّه واضعًا العُلبة على طاولة صغيرة قريبة ملتفتًا إليَّ، ويبدو أنه قد حضَّر مزيدًا من الكلام ليقوله لنا نحن جمهوره الصغير- أنا وأمي وجدتي ورجاله - لكن ثمة عاصفة طرقت الباب في عنف وإصرار، فاضطر أحد الرجال بعد نظرة استئذان تبعها نظرة سماح من عيني أبي، أن يتحرك فاتحا إياه بخمول واضح وعدم اكتراث.

كان دكتور عادل.

فهمت بمن كانت جدتي تتصل!

ندّت من أمي شهقة كتمتها بأصابعها وهي تراه -تقف في وسط الردهة- يتطاير الشرر من عينيه وتنتفض كل خلاياه بغضب واضح، بينما خرجت جدتي من المطبخ أخيرًا.

ارتسمت ابتسامة على شفتيَّ المترعشتين، وأنا أراه يتقدم نحوي مسرعًا ممسكًا كفّي بقوة؛ وكأنه يسحبني من هُوَّة بئر آلامي الذي بدأ يعرفه، هامسًا بحزم:

أنتِ بخير؟

هززت رأسي مجيبة براحةٍ أن نعم، ما كدت أرفع عيني إليه حتى كان أمام أمي في الثانية التالية مقررا:

ادخلي أنت والحاجة الآن ولتبقى "شجن".

قبل أن تنطق عيني أمي اعتراضها بصلابة أكمل بتصميم:

الآن، "شجن" معي لا تقلقي.

ويبدو أن أمواج عند أمي انهزمت أخيرا فانصرفت للداخل تجذب جدتي يدها تحثها للتقدم معها.

جذب عادل كرسيًا خشبيًا لي، ورمى الآخر قريبًا من مكان أبي قائلًا: بلهجة لامبالية قالبًا موازين القوة في المكان عن عمد.

تفضل بالجلوس.

ثم ناظر الرجال حوله بعدم ارتياح شاعرًا بضغط الموقف عليَّ مستاءً منه، وقال بتهكم:

تسلل بين نبرته رغم محاولته إخفاؤه

ما هذا الجيش الصغير؟

كل هؤلاء هنا لحمايتك من ملاقاة ابنتك؟

تملل الرجال مكانهم في حركات عصبية قطعها أبي بإشارته مجيبا بتعالٍ:

لكل منا نظام حياته بمميزاته ومتاعبه.

وقف عادل خلف ظهر الكرسي الخاص بي مستندا لظهره بذراعيه:

نعم أوافقك، ونحن نسينا أن نبلغك نظامنا فلا نلومك لعدم اتباعه، يمكنك طلب الانصراف منهم أنت في أمان في بيتنا وتحت حمايتي، يمكنهم الانتظار خارج عتبة المنزل فقد أزعجوا سكانه.

بإشارة من كف أبي انسلوا للخارج بسرعة ونظام.

أحضر عادل كرسيًا وجلس واضعًا ساقٍ فوق أخرى وقد رفع صوته مازحًا، ألا يوجد لديكم واجب ضيافة؟

وأكمل بتقرير وقد بدا احتراقه غضبًا واضحًا: (ضيفنا عزيز) وواجب إكرامه.

كنت قد بدأت أعود أنا التي فقدتها خلال الوقت الماضي أستعيد أنفاسي ونفسي، فقلت محاولة تلطيف الأجواء، بمحاولة ساذجة ومناقضة لكل مشاعري الحقيقية، خائفة على دكتور عادل من تماديه.

مددتُ كفي ألتقط العلبة التي انتظرتني كثيرا، شكرًا للهدية.

بدا البشر على وجه أبي بعدما كان الامتعاض قد بدأ يغزوه مع كل ما أحدثه عادل بالمكان في لحظات فارتحت لذلك، واستدار نحوي في لهفة تعجبت لها حقا، يسعدني أنها أعجبتكِ.

ثم كاد ينهض كأنه لم يعد يملك المزيد ليقوله؛ لكن حضور جدتي بأكواب العصير أمدَّ عمر اللقاء بضع دقائق ارتشفناه فيها بصمت، وقد بدا مرور الوقت ثقيلًا مزعجًا، كلقاء عدة أشخاص من بقاع مختلفة لا يجمعهم أي جانب مشترك.

فوقف أبي مستأذنًا:

حسنًا سأذهب الآن، ثم مد كفه بورقة مطبوعة إليَّ، هذا رقمي إن احتجتِ أي شيء.

مددتُ كفي آخذه شاكرة عطاؤه بهمهمات حاولت أن تبدو واضحة رغم كل شيء، وعقَّب عادل:

يمكنك الحضور في أي وقت لملاقاة "شجن".

ضيّق أبي عينيه سائلًا بضيقٍ واضح:

لم أتشرف بمعرفة صفتك في هذا البيت؟

حسب تحرياتي الدكتورة منال غير مرتبطة؟

أجاب عادل بابتسامة لزجة:

نعم، لكنها سترتبط قريبًا.

وعلى أية حال، حضورك مُرّحب به إكرامًا لشجن بالطبع لكن بدون رجالك.

تصافح كفّاهم في لقاءٍ بدا كحرب باردة، ثم سحب أبي كفه مستديرًا للخارج؛ لكنه التفت ألقى عليَّ نظرة شاملة مطوّلة لم أفهم معناها، ثم انصرف بهدوء عكس ما جاء به.

بمجرد انصرافه عادت الأجواء أجواء منزلنا بدفئه، جلستُ على الأريكة منفردة بحالي لحظات لأدرك كل ما مررت به.

تسللت أمي لغرفتها دون كلمة واحدة وكأن ثقل اللقاء هدَّ قواها، وبقيَّ عادل بالردهة وقد وقف متأهبًا للانصراف، لكن جدتي جاءته وقد ملأ البِشْر وجهها، طوال عمرك كنت نعم الرجل الذي يعتمد عليه، أتعبناك معنا اليوم.

ألقى بضع كلمات بصوت خفيض شاكرًا مجاملتها، ثم طفق يتحدث معي محادثة طويلة عن اهتمامي بنفسي، وعن ثقتي بذاتي، ومساعدة نفسي بمقاومة ما أمرّ به من مشاعر وأفكار حزينة، وشغل وقتي بما يفيد ويبهج، اقترح اسم مكتبة لقريب له، مكانها ليس بعيدًا ربما تكون مكانًا لطيفا، يساعدني التواجد والعمل به على شغل وقتي بشكل يساعد على الخروج مما أمر به، مؤكدًا أنه سيطرح الأمر على أمي ويقنعها به لو أحببت ذلك،

كانت كلماته تنتشلني من عمق أحزاني، ترتب أفكاري بشكل عملي مثمر، قال أنه أرسل عنوان المكان لأمي، ثم استأذن معلنًا ربما من الأفضل أن أنصرف الآن.

وقفت وقد رأيت حزنًا غزا ملامحه وكأنه تذكّر شيئًا ما، فاتجهت إليه شاكرة علّني أرد بعض من جميله.

شكرًا جزيلًا لك دكتور عادل، حقًا لا أدري ماذا كنّا سنفعل بدونك!

بدا مشغولًا عن كلماتي بالنظر لحيث اختفت أمي بالداخل، فأكملت محاولة لملمة أحزانه.

أمي أيضًا ممتنة كثيرًا.

رفع رأسه يواجهني؛ وكأن شيئا ما لدغه ولَم يعقِّب، فتشجعت لأكمل بود مزجته بسخرية لتخفيف وقع الأمر، ربما فقط هي لا تحسن استغلال فرص حياتها، نعم هي بطلة الاختيارات الخاطئة إن لم تكن تعلم.

ظهرت آثار ابتسامة على وجهه المتعب وقال: في هذه أصبتِ.

حسنًا أراك على خير.

بدا منصرفا وقد أدار ظهره لي، ثم التفتَ فجأة وكأنه تذكر أمًرا هامًا، الآن تذكري أن لا تكوني بطلة الحماقة فيكفينا بطلة واحدة بالمنزل، اتصلي بي إذا جدَّ جديد أو احتجتما أي شيء.

رفعت كفي أكتم ضحكة مستترة خلف كفي وأومأت نعم، فتابع طريقه للخارج مجيبًا هاتفه.

نعم نعم، حبيبتي أنا بالطريق كان أمرًا ما هامًا أخرني عنكما.

فهمت أنها ابنته ملك التي تحدثه، بعض الفتيات محظوظات بأب حنون كعادل!

لقطة (٧)

بعض الناس يعيشوا داخلنا، لقاؤهم مختلف، يحملون عبق طفولة عشناها بينهم، سنوات المراهقة، وبداية الشباب، قد لا نلقاهم لسنواتٍ لكنهم باقون بين خلايانا..

يومًا ما نلتقي ولو بعد عقود، كأن وجوههم تعيدنا صغارًا!

تذيقنا طعم ذكريات مليئة بالبهجة والسعادة التي لم ننساها أبدا.

ذكريات كانت جذور شخصياتنا وأصلٌ وقت تكون ذواتنا.

وبعض الناس يعودون بِنَا لجروح طمسناها بجهدٍ، داويناها بصعوبة ونسيناها أو تناسيناها.

جروح كانت جذور تكويننا منذ الصغر، كانت درسًا تعلّمنا منه الكثير لحياتنا القادمة.

كأن لقاؤهم يعيد أنَّةَ الألم الأولى للجرح الذي برأ منذ زمن أو كذلك ظنناه!

الفصل السابع

وقت مستقطع

"شـجـن"

كموجة عالية ضربت هدوء أيامي كانت زيارة والدي، لكنها مرت على أيّة حال، وفي محاولة من أمي لاقتناص لحظات دفء أكبر، وخاصة بوجود جدتي الغالية.

قررت دعوة خالتي ألفت غدًا للحضور لمنزلنا لنقضي أوقات لطيفة معا، طالما اعتبرناهم جزءا من العائلة وكنا لهم كذلك.

كان يومنا حافلًا بالإعداد لذلك اليوم، أصرت جدتي على إعداد طعام مميز، وقد اختارت المكرونة بالباشميل، والرقاق باللحم، وغيرها من الأطعمة الغنية ذات العبق.

وافقت أمي فلم تكن هناك أي مساحة لقبول اعتراضها من الأساس، وشاركتنا الإعداد في مطبخنا العزيزوصوت القرآن ينبعث من إذاعة القرآن مسترسلا، وهي تكاد تسقط نائمة في أيّة لحظة لإكمالها اليوم بالمطبخ بعد

العودة من الدوام، كنت أرمقها بطرف عيني كاتمة ضحكتي وجدتي تقول بفخر:

هل يوجد ما هو أجمل من رائحة الطهو المنزلي؟!

أجابت أمي مؤكدة على مضض، بالطبع لا يا غالية، لكننا في العادة كنا نعد شيئا بسيطا، فهم ليسوا أغرابا وكلنا نعيش نفس ظروف العمل المضنية.

قاطعتها جدتي واضعة كفها على صدرها بانزعاج، هذا حالك وأنت أم تعرف ما يحتاجه الأطفال من طعام صحي ولذيذ لنموهم، تُرى كيف حالكم يا أبناء عادل وأبيكم وحده المسؤول عنكم!

صمت متوتر سيطر على الأرجاء، تبعه قرار جدتي الحاسم:

اتصلي حالا واطلبي منه إحضار الطفلين مساءً.

ردت أمي مراوغة: حسنا حسنا لكنني أعتقد لا أملك الرقم، لِمَ لا تتصلي أنت؟

لكن جدتي أصرت سأمليه لك، أنت صاحبة البيت لست أنا.

ضحكت أمي مكملة بتأكيد:

طبعا طبعا، حالا ساتصل لا بأس.

وانصرفت للخارج ليصل أذني بعدها، حديثها المتقطع بفترات صمت، يبدو أن محدثها يتكلم فيها: نعم نعم، ننتظرهم، ستكون أمسية لطيفة، وستسعد أمي كثيرا لو أجبتم دعوتنا، سيقضى "مالك وملك" وقتًا سعيدا مع "شجن" وأطفال ألفت.

حسنًا إلى اللقاء.

بعد مرور عدة ساعات كنّا أتممنا عملنا، والبيت في أبهى صورة تختلط بذرات هوائه رائحة الطعام الشهي، ورذاذ المعطر المنعش، وخليط من البهجة والدفء يشملنا، ننتظر صوت رنين جرس الباب ليعلن وصول أول الضيوف، بدا "ملك ومالك" حين وصولهم محرجين جالسين على مقعدين متجاورين، ولم تفلح كلمات أمي وجدتي المُرحّبة في تغيير الوضع، اقتربت منهما مسلّمة ومشجعة:

أهلًا يا "ملك" سعيدة بمعرفة صديقة جديدة مثلك ومعي ندى بالداخل، هل تأتين معنا.

همست قرب أذنها: ندى ممتازة في وضع مساحيق التجميل، وترتيب تسريحات الشعر فما رأيك؟

التمعت عيناها وأضاءت ضحكتها وجهها، تعلن أني استطعت الفوز باهتمامها وكسر الجليد، وكان لي مع "مالك" خطة أخرى بعدما لاحظت تلاعب أصابعه على شاشة هاتفه باستمرار، فقلت له:

هل تعلم "باسم" أخو ندى.

يملك الكثير من الألعاب الالكترونية على هاتفه يمكنكما تبادل الخبرات.

بعد دقائق مرت أمي تطمئن؛ لتجد الجميع يلعبون بمرح فرفعت أصابعها مشيرة بعلامة النصر لي دون أن يلاحظ أحد.

"عـادل"

حياتي كالجميع مررتُ بأوقات حالكة، وأوقات سعيدة، وبعد أزمة وفاة زوجتي وحالة من الصدمة مررت بها ولَم يكن لدي الوقت لأفكر في حالي كثيرا؛ بل عدت لمصر ووجدت عملًا محاولا ترتيب حياتي وأولادي.

وبمرور عامين بعد ذلك كنت أحاول أن أوازن فيهم بين بيتي وطفلاي وبين عملي، بدوت كمهرج أحمق يؤكد أنه قادر على السير على الحبل؛ بينما خطواته تتعثر بوضوح لكل من يراه!

لكنني كنت دائما شديد البأس، لا أستسلم بسهولة أبدا!

شاءت الأقدار أن أعمل بنفس المشفى التي استقبلت "شجن" يوم الحادث، ويالها من صدفة!

وكأنني حين رأيتها لأول مرة كغريق يتخبط ولاح له طوق نجاة، كانت رؤيتها كافية لتعيد لي الأمل.

حضرت دكتورة "ألفت" يوم الحادث أولا لقرب سكنها من المشفى، وبعدما اطمئنت لحالة "شجن" الحالية، وبينما نحن في انتظار حضور أم

"شجن" بدأت تثرثر ثرثرة نسائية عن كون أم "شجن" لم يصادفها حظ جيد في زواجها الأول، ودعواتها أن يخلف الله عليها بالأفضل كما تتمنى، كنت أتقنت التعامل مع هذه الدردشات النسائية التى اضطر أحيانا لسماعها أثناء عملي، مكتفيًا بهزة رأس حتى لا تسترسل أو كلمة طيبة تطيبًا للخواطر لننهي الحوار، لكن صدف يومها أنها كانت "منال "من تتحدث عنها وأنا لا أدري، وجهًا أعادني للخلف أكثر من عشر سنوات.

أعاد الكثير ودفع بالأمل بألوانه وزقزقة عصافيره لحاضري، لكن جزءًا منّي تمرد قائلًا بدعوى العقل؛ هل سترفض للمرة الثانية؟

هل تتغير المشاعر بعد خمسة عشر سنة في خضم الحياة، أم يمكن استعادتها؟

هل نملك الفرصة لبداية جديدة؟

بعدما اطمأننت، وطمأنتها أن الفتاة بخير رغم موقفها المتهور الذي لم أفهم وقتها ما الذي دفعها إليه، وجدت نفسي أزجّني بين ثنايا تلك الأسرة الصغيرة، وقد ربح قلبي معلنًا أنه سيظل يعرض نفسه ولو رفض للمرة الألف.

كانت تجلس معي بالمكتب تتحدث بعفوية، وكنت أنا أتخذ قرارا بمحادثة أخيها مرة أخرى، ولَم تقصر صديقتها تدبير الحصول على الرقم.

التقيته بذات البيت الذي قصدته أمي أول مرة، غير أن آثار الزمن انطبعت عليه، لكن رغم كل شيء يظل الحنين لكل ما عشنا ذكرياتنا فيه

يوما، ها أنا أعيد طلبي بعد وفاة أمي ووالدها، مكررا بلا ملل منتظرا رد أخيها هذه المرة لعل عقله أرجح وميزانه للأمور يقف في صفي.

جلست أمامه بمشاعر الشاب العشريني الذي كنته، طالبًا تلك الفتاة التي رغبت في قربها في ذاك الزمن، حتى أنني نظرت في المرآة أمامي معتقدا أنني سأرى ذاك الشاب الصغير الذي لم أراه منذ زمن، وتاه مني في تفاصيل الحياة وكنت واثق أنني سأستعيده معها لو سمح لي.

قلت كلماتي بثقة بعد السلامات والتحيات:

كنت جاركم يوما هنا وطلبت والدتي يد دكتورة "منال" وأنا هنا أكرر طلبي.

نظر لوجهي باحثًا عني بين ثناياه ويبدو أنه وجدني في أروقة ذاكرته فتبسم، نعم نعم دكتور عادل، شرف لنا طلبك بالطبع..

ثم سكت هنية واستطرد بتعقل، لكن "منال" مرت بظروف..

قالها؛ وصمت متحيرا من أين يبدأ...

فأكملت مطمئنا أفهم قصدك، عرفت كل ما جرى وأنا أيضًا مررت بدروب الحياة ويمكننا أن نبدأ من هنا لا من حيث كنّا نقف آخر مرة التقينا.

ظهر على وجهه الرضا والبشر، وأطلقت زوجته من خلف باب ما زغرودة غرّد لها قلبي وانزعج الجالس أمامي قائلا:

الصبر؛ لكل شيء أوان ولمنال حقها في القرار.

خيّم الصمت مرة أخرى وظهرت والدته مرحّبه تبعث السلامات والتبريكات، بينما انزوت زوجته في الداخل.

حتى الآن يبدو الأمر جيدًا بل جيدًا جدًا.

قد لا نكون الأسرة المثالية أنا وصغيري اليتيمين وهي وابنتها المتبناة، ولكننا سنكون أفضل جميعنا معا، ربما يستطيع كل منا لم شمل الآخرين واحتواء ما مروا به لنعبر للمستقبل سويا.

كان هذا حلمي الذي لم أعرف هل ستسمح "منال" به أم لا، في المرة الأولى لم يكن بيننا حوار مباشر ورضخت هي لقرار العائلة ولَم يسمح لي بالدفاع عن موقفي حتى!

لكن تلك المرة تختلف، القرار معها والأسرة مؤيدة وأنا أملك أطنانا من الإصرار بين جنبي بلا شك، ولن أسمح لها بالرفض دون أن استنفذ كل الجهود الممكنه أولًا.

ولِمَا ترفض؟!

يوم كلمتها بوضوح رافضًا ردها برفض مقنع لم يكن أمامي حلا إلا المواجهة لكنها تذرعت بشجن، وما بها شجن؟!

فتاة كما صغيرتي تحتاج عنايتها وأنا لا أعترض أبدا على تواجدها معنا.

أم تراها تعودت الحياة الهادئة التي تعيشها هي وفتاتها وتراني حجرا يبعثر هدوء بحيرة حياتها؟

لكنها ياللعجب رحبت بحجارة أخرى كذاك الغريب والد "شجن" بكل زوبعته في منزلها؟!

نعم كنت مشوشًا، لم أعد أفهم قوانين اللعبة لكنني متأكد أنني لن أستسلم بسهولة، "شجن" تلك الفتاة لم أتعامل معها كثيرا بعد، لكن نظرات امتنان ضمتها عيناها يوم أوقفت أنا والدها ذاك عند حده أنبأتني عنها خيرا.

نظرات أعطتني مزيد من الأمل وقد زاد من يقفون معي في موقفي واحد، بينما هي ترفض متشبثة فقط بصلابة رأسها.

ليس حبي لمنال حب من أول نظرة أو ملحمة عاطفية، كلا إنها معرفة _ وإن بدت سطحية_ لسنوات طويلة منذ الصغر.

أي أنها تقريبا تشكّلت منذ الصغر حتى كبرت كامرأة، وكذلك تشكلت أنا بشكل موازٍ، رآى كل منا الآخر في كل مراحله، عاصر كل منا الأحداث الكبرى حزنًا وفرحًا في أسرة الآخر.

يربطني بها رغم كل شيء ثقتي بها كشخص وبأخلاقها وتربيتها وحبي لكل تفاصيلها حتى أنني أراها جزء هام يساعدني حاليا في حربي الشعواء، ومحاولاتي المستميتة لبناء جو أسري مفعم بالحياة والإشراق لأطفالي بعد تبعثري منذ وفاة زوجتي رحمها الله.

نعم أنا أعترف بكل شجاعة أحتاج أخيرا كتف يطمئنني، وأستند إليه قليلا لأستطيع المواصلة بينما ترفض هي _بكل جبروت امرأة_ ذلك.

طرقت باب المنزل ناظرا للوقت في ساعتي آمل ألا أكون تأخرت كثيرا عن موعد اصطحاب الأطفال للمنزل بعد دعوتها لهم لقضاء اليوم مع أولاد "ألفت" وابنتها، ورغم ما يرسمه الإرهاق على وجهي، خريطة بؤس لم تخطئها عيناها فور ما فتحت الباب قالت مرحّبة وداعية إياي للدخول:

أهلا دكتور عادل تفضل.

رددت مترددا: شكرًا لكِ لكننا تأخرنا كثيرا.

لكنها أصرت مكمّلة: ستحزن أمي كثيرا إن لم تدخل حقا.

قلت متحججا بلطافة، عديها أنني سأمر في وقت لاحق لكن يجب أن أنصرف الآن قبل أن أسقط نائمًا فلا نجد من يقود بنا عائدًا للمنزل، لا تكفي كلمات الشكر والامتنان لدعوتك للأطفال وتحملكم لهم طوال اليوم.

ابتسامة لم أرها منذ زمن طويل زانت ملامحها وهي تؤكد أن لا شكر على واجب، ولكن ملامحها كانت تحكي ذات قصة الإرهاق حتى لأكاد اجزم أنها ستسقط نائمة خلال دقائق ثم نادت "شجن" هاتفة، "شجن" أحضرى "ملك ومالك" رجاءً والدهم هنا.

صوت "شجن" المنبعث من الداخل أجاب: نعم حالا.

أخبرتها عن المكتبة مشجعًا إياها على السماح لشجن بقضاء وقتها بالعمل بها، مؤكدا قرابتي وثقتي بصاحب المكان، وأنني أخبرته أن "شجن" مثل ابنتي أيضا، فرحبت مادام يساعد الأمر بتحسنها.

ثم التفتت لي مكمّلة حديثها وقد أطرقت حرجًا، حسنًا تأخرت كثيرا في شكرك على الدعم هذه المرة.

كنت أفهم أنها قصدت يوم جاء والد "شجن" فقاطعتها، لا عليكِ، لا حاجة للشكر أصلا، على أيّة حال هو يسكن بعيدا، ولا أظن مشاغله تساعده ليكرر الزيارة غالبا.

المهم أن" شجن" أفضل؟

هزت رأسها مؤكدة، نعم بدت تائهة أول يومين، تذكرت أشياء من الماضي أزعجتها لكنها الآن أفضل، ساعدني وجود أمي كثيرا فهي مشغولة معها، وسأحرص علي توفير الصحبة لها كما اليوم.

قلت بإعجاب؛ واضح أنك تحسنين التعامل مع الأمر، وتطورت أساليبك لمعالجة المشكلة كثيرا أؤكد لكِ، إن احتجت أي مساعدة لا تترددي بالاتصال رجاءً.

ظهر طفلاي بصحبة "شجن"، بدت "ملك" سعيدة للغاية بتسريحة شعر مختلفة بالطبع أعجز عن ترتيب شعرها هكذا، وبدا "مالك" شبه نائم مما يعني أن أفرغ كل نشاطه في اللعب اليوم.

لقطة (٨)

هل تعلمين يا صديقتي؟!

بعض البشر أرق من النسيم..

وآخرون قساة كحجر صوان..

كقطعة من الحلوى بدت منمقة جميلة حد المثالية..

صلبة وقوية من الخارج، حد أنك تطمئن أنها يجب أن تكون بخير..

هشة بأعماق لا يبصرها أحد، حد أنك يجب أن تحتاط وتحذر قبل أن تتعامل معها..

خشية أن يتأثر داخلها الفائق الرقة وهو رغم ذلك أثمن ما فيها!!

الفصل الثامن

على الطريق

"شـجـن"

وقفت أعدّل هندامي أمام المرآة بتكاسلٍ لا أملك طاقة لموعدي مع دكتور "عادل"، أستعيد كلمات "ندى" حين كنا نتحادث حول جدوى تلك المتابعة المستمرة مؤكدة أهمية الأمر، "شجن" لا تأخذي الأمور بتلك البساطة، كأنه انفعال لحظي ومر، كلا كانت براكين غضب اختزنت بداخلك لسنوات وتفجرت لحظتها متسببة بفعلٍ يائسٍ كاد يؤدي بحياتك؛ أنتِ الآن بخير، لكن عليكِ معالجة تلك المشاعر المتصارعة بداخلك.

رددت بسخرية مريرة، ألا يكفي أن تكوني أنت معالجتي تسمعي تلك الثرثرة بداخلي وفي أعماق رأسي، تلك الحكايا التي تتراوح بين مواقف حدثت فعلا وكوابيس سنوات تلتها، وقد اختلطا فلم أعد أفرق بينهما، أن تفكري معي كيف أفرق بينهما، أنساهم أدعهم يكفون عن الضجيج الذي يصنعونه برأسي وبين جنباتي، ألا تريدين أن تكوني طبيبي الخاص؟

ضحكت "ندى" قائلة بشغف:

كنت أتمنى هذا أيضًا، لكن كوني تخصصت في الجامعة بتخصص علم النفس ليس كافيًا فلست طبيبة أصلا!

ومدت كفها تشير لرأسها: وأنت تحتاجين من يخرج هذه الفئران التي عششت برأسك منذ زمن طويل.

صمتُ أفكر فاقتربت مني محيطة كتفي بذراعها، دعينا لا نعاند أكثر، زيارة كل بضعة أيام لن تضر، لكنها ستطمئن قلبي، وقلب أمك أيضا، وبإذن الله تساعدك لتكوني أفضل.

بعد وقت اكتشفت أنها كانت محقة، كنت قد وعدت أمي أن أتابع معه، أمي مازالت قلقة عليّ منذ يوم تلك الحادثة وأحببت أن أطمئن قلبها، أنني سأكون بخير بالموافقة على المتابعة مع دكتور نفسي، ودكتور "عادل" غير كونه طبيبًا متميزًا في مجاله وله خبرة أعرفه وأثق به فكان فعلا الحل الأمثل.

ألقيت نظرة أخيرة على مظهري، لكنها في الواقع كانت تنفذ لنفسي القلقة من اللقاء بين الحين والآخر، كأن فتح نوافذ نفسي وتسرب الضوء لمشاعري الدفينة منذ فترة.

كان صعبا، لكنني انطلقت في النهاية لعيادة دكتور "عادل" ممنية نفسي بانتهاء الأمر بسهولة كماهي العادة.

كانت عند الممرضة علم بحضوري على ما يبدو فلم أنتظر فور وصولي في الموعد الذي حدده دكتور "عادل" مع أمي من قبل، ألقيت التحية عليه

وجلست في المقعد المخصص منتظرة أن يبدأ حديثه، فرتب بعض الأوراق أمامه وارتسمت بسمة حنونة على وجهه، وقال مازحا:

تبدين أختًا كبرى رائعة، لقد حكى "ملك ومالك" لي الكثيرعن يومكم معا، عن الطعام الشهي واللعب والمزاح المتبادل.

ابتسمت بالمقابل قائلة: حسنًا هذه نقطة جيدة، يمكنني أن أكون جيدة في شيء ما رغم كل شيء.

بدا أن كلامي لم يعجبه فاهتزت ابتسامته رغم محاولته الاحتفاظ بها، وقال برفق يحاول فهم ما أفكر به، وما هي الأشياء التي لا تجيدينها برأيك؟

هززت كتفي وأطرقت باعدة عيناي عن الالتقاء بعينيه:

الكثير على ما يبدو، فشلت أن أكون فتاة عادية ككل الفتايات، تستطيع أن تعرف عن نفسها وأهلها المقربين ببساطة في أي مكان، عن مكان نشأتها، وأسماء أخوة وأخوات ربما فشلت في شرح هذه الاختلافات في حياتي عن البشر الطبيعين، ربما فشلت في تقبل هذا أصلا!

قال مشجعا: هل هذا كل ما يزعجك؟

قلت بغضب لا أدري كيف ومتى تسرب لصوتي فبدا عاليًا: كلا..

هدأت نبرتي وأكملت..

ما يزعجني أنني لا أستطيع أن أكون ما أنا عليه، أن أعبر عن حزني وقتما أحزن، عن غضبي ممن أزعجوني، أن أفرّق بين ما مررت به من أحلام وحقائق وكوابيس!

أن عليّ أن أغلق باب الصمت على هذا كله، هذا الباب الذي صار ثقيلا صدئًا لا أستطيع تحمله فتختنق روحي تحته.

قال بهدوء: ومن فرض هذا الصمت.

قلت بخيبة وخزي: أنا.

ثم قطبت ما بين حاجبي قائلة، بل فُرض عليّ كلما بحثت، كلما حاولت الفهم..

حزن من حولي؛حزنت أمي حين كنت طفلة لحزني، وأمي "منال" تحزن أيضا لحزني، لا أريد أن أوجعها، أغلق على أوجاعي خشية أن تتسبب في وجعها هي.

أليس نكرانًا للجميل أن تفعل كل شيء لأجلي، ثم أحمل معي آلام الماضي فأنثرها على جميل صنعها فتزول السعادة عني وعنها؟

كان يصغي إلي باهتمام، يتكلم بعدها مصححًا ومؤازرًا بشكل متوازن، يساعدني لأجد النقاط التائهة فأرتبها على حروفي فترتاح نفسي، اكتشفت أن البوح جميل حقا، وأنني ربما أفرطت في الكتمان.

خرجت من الغرفة بروح غير التي دخلت بها، حاملة ورقة بها بعض الأطعمة التي تساعد على رفع مستوى السعادة من الأطعمة الطبيعية ورفض كتابة أي دواء فالأمر لا يحتاج لذلك وهذا أسعدني، اتفقنا على الموعد القادم وانتهى كل شيء عند هذا الحد، كنت أشعر أنني حققت انتصارا عظيما فاتصلت "بندى" فور ملامسة قدمي للرصيف خارجا، أزفّ لها الأخبار، وما إن فتحت الخط حتى حكيت لها بانشراح، انتهت المقابلة حمل صوتها ذرات البشر عبر الأثير: حسنًا تبدين بخير؟

أكدت بانفعال وأنا أومىء برأسي كأنها تراني: نعم أنا كذلك الحمدلله.

قال بمرح: ممتاز، دعينا نحتفل بهذه الخطوة الثمينة، الخطوة الأولى على الطريق، مري بي ولنخرج سويًا.

قلت وقد راقت لي الفكرة كثيرًا: نعم نعم بطريقي إليكِ.

"ندى" تلك الصديقة بنكهة الأقارب، جاءت أمي وأمها لهذه المدينة لأجل العمل في هذا المشفى الكبير، وتركت كل منهم الأهل والأقارب خلفها تراهم في الأجازات المتاحة، لكن كل منهما كانت للأخرى كالأخت في الغربة، خصوصًا مع سفر والد "ندى" معظم الأوقات، وبالتالي صرنا كأولاد الخالة، نتقابل كل أسبوع بحد أقصى، نقضي الكثير أوقات فراغنا معا، رغم أننا حاليًا في كليتين مختلفتين، لكننا لم نعدم وقتًا بين المحاضرات نتقابل فيه، كعادتنا سرنا متجاورتين بعد السلام وطفقت "ندى" تعدد الأماكن التي

يمكننا الذهاب إليها وتعطيني حق الاختيار بما أنني صاحبة الاحتفال، قلت لها وأنا أفكر بشرود بالمكتبة التي أوصى بها دكتور "عادل".

هل تذكرين هذا المحل الذي يبعد عن بيتنا بشارعين، كان مغطى منذ فترة طويلة وظللنا نخمن ماذا سيكون نشاطه التجاري؟

قالت وهي تحاول التذكر: نعم أذكر شيئا كهذا!

قلت مقترحة: رأيتهم يزيلون عنه القماش الذي كان يحجبه عن الأنظار منذ يومين وبالتأكيد لقد فتحوه اليوم.

قالت متسائلة: هو مقهي؟

قلت بتردد: لم أفهم حقا بدى مظهره غريبا، دكتور "عادل" رشحه لي وقال أنه كمكتبة دعينا نذهب وليكن وجهتنا للاكتشاف بما أنه يوم الاكتشافات على ما يبدو.

علقت ذراعها بذراعي مشجعة وانطلقنا لحيث المكان المحدد، خلال دقائق كنا هناك لقرب المكان، وهناك وقفنا نتأمله منبهرتين!

"أهلا"

يبدو أن مظهرنا كان ساذجًا كطفلتين واقفتين أمام محل حلوى، فتقدم صاحب المحل على ما يبدو محاولاً الترحيب بنا، كان رجل خمسيني بشوش الوجه، أنيقًا كالمكان الذي يقف فيه، عارضًا علينا الدخول للمكان

الجديد، أهلا بكن في دكان الكتب، أنتما أول زبونتين للمكان اليوم لذا أول مشروب مجانا، فبوجودكن يزداد المكان بركة.

قالت "ندي" شاكرة: شكرا لك، لقد جئنا للمكان خصيصا.

دخلنا نتأمل المكان المبتكر ومرتب بعناية، أرفف من الكتب متراصة بأناقة، وكراسي مختلفة الأشكال والأحجام والألوان، لكنها وزعت في المكان بتناغم...

بحيث أن كل قارئ يحظى بجزء من الخصوصية، وتتنوع ألوان وأشكال الجلسات حتى لا يمل مرتاد المكان منه، بل يمكنه اختيار مكان مختلف كل مرة، على مسافة كان هناك حائط زجاجي خلفه يصنع أحدهم مشروبات ومأكولات خفيفة، يمكنك تناولها في وقت استراحتك في مكان مخصص منفصل جزئيًا عن المكتبة.

الفكرة، المكان، التناسق كل شيء بدا رائعًا بشكل لا يصدق!

توارى الرجل خلف المكان الزجاجي الخاص بالمشروبات، وطفقت أنا و"ندى" نتفحص المكان بفضول حذر.

أغراني المكان المميز بديكوراته الجميلة بالتصوير، فأخرجت الكاميرا الخاصة بي من حقيبة ظهري وبدأت ألتقط المكان من زوايا مختلفة، وراحت "ندى" تتجول بمرح آخذةً أوضاع تصوير مختلفة، فتارة جالسة على أحد المقاعد تقرأ كتابًا، وتارة تناظر الكتب بين الرفوف متأملة إياها مغتنمين وجودنا بالمكان وحدنا.

التفتت خلفي لأجد عم "فاضل"_ كما عرّف نفسه وحكى لي عنه دكتور "عادل" _ يتقدم نحونا حاملًا بعض أكواب العصير البارد لأجلنا فقلت ممتنة، أتعبناك كثيرا اليوم شكرا لك.

ابتسم العم قائلا:

بل أنا سعيد بحضوركما، المكان جديد وأنا والكتب وحيدين هنا ونحتاج للصحبة.

ضحكنا جميعا وجلسنا للطاولة المخصصة للمشروبات بالجهة الأخرى، فعلق العم ملاحظا الكاميرا: هل كنتِ تلتقطين الصور للمكان؟

هززت رأسي بنعم وقلت بحذر: إذا كان الأمر يزعجك سأحذفها.

لكنه أكد رفضه قائلاً: لا بالطبع، وددت رؤيتها فقط.

ناولته الكاميرا مشيرة للزر الذي يقلب به بين الصور، فراح يقلب بينها وقد ارتسمت على وجهه سعادة غامرة مغمغمًا: ما شاء الله تبارك الله!

السعادة على وجهه جعلتني أحس بالإنجاز فقلت له مقترحة: يمكنني أن أطبع لك الصور لو شئت؟

قال ممتنًا: سيكون هذا رائعًا ثم طفق يحكي لنا: هذا المكان رسمته ابنتي "إيناس" إنه أول تصميم لها بعد تخرجها من كلية الهندسة، تركت لها الخيار لترسمه كيفما أعجبها وشاركها ولدي الوحيد "سيف" _ صاحب فكرة المشروع _بعض الأفكار، كان المفترض أن يقوما هما بالاهتمام بالمكان ولكن بعد تجهيزه.

اكتشفت "إيناس" حملها الأول وحالتها الصحية لا تسمح، وصرت أنا مسؤولاً عن المكان مع "سيف" حين لا يكون بالجامعة لأنه معيدًا هناك.

قالت "ندى": بارك الله فيهما يا عم، فيك الخير والبركة وبإذن الله يكون المكان مصدر خير وسعادة لكم.

قال مؤكدا: الحمد لله، لكن المكان فكرة شبابية ويحتاج طاقة الشباب يا ابنتي، وأنا كبرت على مثل هذه الأشياء، وجودكم اليوم والتقاط بعض الصور أضاف حيوية للمكان.

قلت محاولة إسعاده:

سأرفع الصور على المواقع الإلكترونية وبالجامعة كدعايا للمكان، ما رأيك يا عم؟

أجاب مستبشرًا؛ نعم سيكون هذا رائعًا، عدوني بالعودة كلما سمح لكم الوقت.

شكرناه على كرمه وترحيبه، وانصرفنا على وعد بالعودة بالصور في وقت لاحق.

بعض الأفكار الجديدة تجدد النشاط، وها أنا أعود للبيت بطاقة حماس عالية لأحمّض الصور وأصفها أمامي بسعادة، أمسك ورقة وقلمًا محاولة كتابة كلمات دعائية عن مكان جديد صار يعني لي الكثير كتحدي جديد (دكان الكتب).

لقطة (٩)

خطوات متتالية هي؛ نمشيها مسرعين أحيانا ومتعبين واهنين ببطء مرات...

طريق طويل نعبره نمر بالكثير والكثير من البشر يترك كل منهم داخلنا أثرا، نكتسب بعضا منهم ونعطيهم بعضا منا وعلينا أن نحترس حتى لا نفقد أنفسنا دون أن ندري...

لا بأس من بعض التغاضي، لنكن المغفلين أحيانًا، إن كان تغافلنا لبقاء ود أو لطيب قصد لم يفهم خبثًا لم نتعود التعامل به!

ولا مفر من بعض قسوة أحيانا هي عين الرحمة بعد طول ظلم!

وبعد كل شيء تهدأ أنفاسنا أخيرا بعد لهاث من فرط الجهد المبذول، ونعود نمشي على ذات الطريق لكن بوعي أكبر تعلمناه من تجارب طويلة غيرت فينا وتركنا عليها بصمتنا قبل الرحيل...

نبتسم... ففي النهاية لم نخسر شيئا، أبدًا بل كسبنا ثواب حسن الظن وتحمّل الأذى، ومازال ينير طريقنا كثير من دفء الحب...

الفصل التاسع

البحث في كومة قش

"شـجـن"

جلست أجاور أمي في السيارة أكتم دموعًا تلح علي لتفرّ من أسر قيدها وتنطلق، ربما تحمل بعضا من الألم الغير محتمل للخارج، لكنني حاولت بكل جهدي حبسها مشفقة على أمي أن أحمّلِها المزيد من ألمي، فيكفيها ما مرت به اليوم، لكن أمي كانت تتكلم بثقة محاولة بث مزيد من الطمأنينة في عروقي: هل ظننت أن الأمر سهلا؟

طبعا لا.

لقد جئت وأنا أعرف أن العثور على أمك ليس سهلاً أبدا، مرَّ فوق عشر سنوات وتغير أشياء كثيرة في حياتك وفي حياتها بالتأكيد.

قلت من بين دموعي: اتصال تلك السيدة "علا" أيقظ بداخلي الأمل!

قالت أمي بتؤده: على الأقل ملكنا طرف خيط، عنوان تركته أمك "لعلا" يوم جاءت للملجأ بعد ذهابك منه معي يبدو أمرا جيدًا.

ورغم أننا لم نجدهم في العنوان الموصوف هنا في العاصمة، لكنه يدل أنها مازالت تبحث عنك مثلما بحثت عنها صحيح!

قلت وأنا أمد كفي لالتقاط منديل ورقي لأمسح دموعي التي انهارت من قيدها:

نعم!

تبحث عني وأبحث عنها، ولكننا بقينا تائهتين رغم ذلك.

ردت أمي بأسف: فاتني ترك عنواني "لعلا" يوم صحبتك معي.

لو كان معها لوصلنا منذ سنوات..

لكنها حين زارت والدتك الدار، وحكت رحلة بحثها المضنية عنك، لم يكونوا يملكون عنواني الحالي وبالتالي ازداد الأمر تعقيدا، والبحث سنوات أخرى حتى عرفت "علا" مكاني بالمشفى بالصدفة، حاملة أمانة ووعد لأمك بإعطاء العنوان لي فور إيجادي.

مدت يدها تمسك كفي بقوة: لكنني أعرف أنك قوية، متأكدة أننا سنكمل الطريق سويًا حتى يأذن الله لنا بإيجادها.

ثبتت عينيها في عمق عيني التائهتين قائلة بقوة: لكنني أريد أثناء ذلك الطريق لاكتشاف الماضي، أن أرى "شجن" ابنتي القوية، تلك التي تملك الصبر والجلد منذ كانت صغيرة لتواجه بهما مع إيمانها كل تقلبات الحياة.

أومأت برأسي متصنعة قوة وصلابة تفضح عيوني مدى رقتها متمتمة: نعم أنت محقة يا أمي، كل شيء سيكون على ما يرام.

تحركت بالسيارة وهي تتحدث بحماس: يكفي أن كل من التقينا بهم في عنوانها القديم أو من التقوها بالدار، يحكون كم كانت تملك روحًا طيبة ومحبة لكل من حولها، يحكون عن صبرها وإيمانها، تركت لك كلمات عنها من أفواه كل من التقينا تحمل قدوة عليك التمسك بها.

قلت وقد سالت بعض دموعي مرة بصوت متهدج: نعم أنت محقة يا أمي، أنا حقًا أتعبتك معي.

التفتت لي وقد أوقفت السيارة: لا تقولي ذلك أبدا أنت نور حياتي، وكل ما تتمنيه يسعدني تحقيقه لك، لا يسعدني شيء مثل رؤيتك بخير، وستكونين كذلك قريبا.

أليس كذلك؟

رحت أؤكد وقد أكسبتني كلماتها بعض العزيمة: نعم أنت محقة.

بعد إفطار لذيذ تشاركنا به الشطائر الساخنة وعصير المانجو الطازج الذي تعم أمي كم أعشقه، كنا استعدنا كثير من ثباتنا بعد تجربة بحث موجعة، فانطلقت أمي لعملها وتركتني أمام باب (دكان الكتب) الذي صرت أقضي به جزء لا يستهان به من يومي، بعدما عرّف دكتور "عادل" العم "فاضل" بي والذي رحب بعملي معه في المكتبة.

لقد بدأ أخيرا العمل بالدكان يزدهر، كنت سعيدة جدا بتزايد عدد الحضور من طلاب الجامعة التي لا تبعد كثيرا، وبعض طلبة الثانوي، وبعض الشباب والشابات ممن هم أكبر سنًا، كل شخص كان يحضر لأول

مرة فأسجل اسمه في دفتر(دكان الكتب) كان يعني لي نجاحًا آخر، ساعدني كثيرا بالطبع عم "فاضل"، فكنا نصوّر الكتب الحديثة كل أسبوع التي تم إضافتها، مع نبذة عن كل كتاب يجهزها عم "فاضل" أو ابنه "سيف" كما قال لي، ثم أضيفهم لصفحة الدكان على مواقع التواصل، وعلى الجانب الآخر كنا نوزع بعض الأوراق الدعائية عن المكان بالجامعة أنا و"ندى" كونه مكان هادىء للاستذكار أو عمل الأبحاث، أو نزهة مختلفة، "لماذا يجب حين يخرج الشباب أن يأكلوا فقط؟ ربما كان طعام العقول أولى لإسعادنا" هكذا كان عم "فاضل"يقول ضاحكًا.

كانت كلمات عم "فاضل" تلفت نظري حقا لانقلاب بعض مفاهيم الحياة، وجهه الذي يشع طيبه، اهتمامه بأن يتغير الشباب للأفضل، نصائحه وخبرته في الحياة كلها حين كان يشاركني إياها، كانت تضيف لي رصيد ضخم من التجارب التي استفدت منها.

كعادتي اليومية، وقفت أتأكد من ترتيب الكتب وفرز كل كتاب في مكانه حسب القوائم التي أعدها عم "فاضل" ليصل الزائر لما يريد بسهولة، مستغلة وقت إغلاق المكان حيث لا زبائن لإنهاء الترتيب استعدادًا لاستقبال من يحضر بعد ذلك، ومن حيث مكاني فوق السلم لأطال الكتب في الرفوف العليا، كانت الرؤية أجمل أوحت لي بكثير من الصور للدعايا القادمة، أحضرت الكاميرا وارتقيت السلم مرة أخرى محاولة التقاط بعض الصور من هذه الزاوية المميزة التي اكتشفتها توًا، أقرب حينًا وأبعد آخر للوصول لأفضل صورة، متطلعة للبهجة التي سترسمها الصورة على وجه

عم "فاضل" وأتخيل كلماته الطيبة التي سيشجعني بها كما يفعل عقب كل عمل أقوم به: رائع يا ابنتي أنت حقا مبدعة، لا أدري ماذا كنت لأفعل بدونك.

(هل من أحد هنا؟)

انطلق صوتًا ما عاليا، كنت في قمة تركيزي أكاد أحصل على الصورة وقد ضغطت زر الالتقاط حين دوى هذا الصوت في أرجاء المكان، فارتجف كل شيء حولي، حاولت التشبث بالسلم لكنه لم يكن أكثر ثباتا مني وخلال رحلة سقوطي المروعة لمحت وجها لشاب مرتاع، تلقتني الأريكة المبطنة بالاسفنج فقللت من ألم سقوطي، أفقت من ذهولي على صوته يتنحنح قائلاً بتوتر: هل أنت بخير؟

رفعت وجهي إليه لأجده واقفًا وقد أدار لي جانبه تعانق عيناه الأرض، فاقتربت منه ململمة كبريائي المهدور قائلة محاولة استرجاع كلمات عم "فاضل":

"الزبون ليس دائما على حق، لكننا مقدموا خدمة، علينا أن نتحلى بالحرفية اللازمة أن نستطيع تمالك أعصابنا، ونتكلم برسمية ولو أخطأ هو بفعل غير ذلك".

سألته يومها مستنكرة: لكن يا عم "فاضل" هل أسمح للزبون بإهانتي أو التقليل من قدري فقط حتى لا أخسره؟

قال مؤكدا: لا بالطبع يا ابنتي، يمكنك ايقافه عند حده بكلمات رسمية بسيطة.

قلت بعناد وفورة الشباب: وإن لم يستجب لمحاولاتي؟

قال ببساطة: إذن يمكنك أن ترفضي التعامل معه وتخبريه أنه مرحب به متى عاد للسلوك المفترض لاحترام المكان وأهله.

وها أنا أطالع هذا الزبون الذي اقتحم المكان فجأة، فاتحًا الباب رغم اللافتة المكتوب عليها أنه وقت الراحة متسببا في الفوضى وربما بعض إصابات لولا فضل الله، بوجه ينافس شعري في لونه الأحمر احتقانا توجهت إليه قائلة: هذا وقت الاستراحة لا يمكننا تقديم أي خدمات الآن.

بدا أنه تفاجأ بكلماتي وانزعج، وقد أمال وجهه جانبًا قليلاً يتأمل المكان حولي وكأنه يبحث عن شخص ما، فرددت كلماتي بصوت أعلى ليسمعها: يمكنك العودة في وقت لاحق سيدي.

لكنه اساريره انفرجت ما إن لمح ميمونة مسؤلة قسم الأطعمة الخفيفة والمشروبات، وقد هرعت إلينا بحرج يشرح أن هناك شيئًا خاطئا قائلة: مرحبا سيد "سيف"، أضاء المكان بوجودك.

حسنا هاقد أدركت لماذا يتصرف بغرابة، إنه ابن عم "فاضل" عاد من سفره للدراسة، وأنا على ما يبدو أفسدت كل شيء بتسرعي، صدق من قال: العجلة من الشيطان!

فقلت محاولة تدارك الموقف: أهلا سيد "سيف" تشرفت بلقائك.

كانت عيناه تنظران بعيدًا لكنه تمتم قائلاً: لعلك "شجن"؟

قلت بثقة: أنا هي.

فقال شاكرًا: لقد كنت نعم السند لأبي وقتما اضطرتني الظروف للسفر، شكرًا جزيلاً لك.

وأكمل بحماس: ما فعلتيه لأجل المكان وضعه على خريطة الأماكن المعروفة للشباب في وقت قياسي.

قلت، وقد أنستني كلماته ما حدث سابقا: لا شكر على واجب، المكان كان يستحق الاهتمام والعناية، وأنا التي أشكر عم "فاضل" على كل ما تعلمته منه حقًا.

وكأننا حين ذكرنا اسمه استدعيناه فما هي إلا ثوان وكان عم "فاضل" بيننا هاتفًا ببشر: حمدلله على السلامة "سيف" الغالي معانقًا إياه.

ثم التفت قائلا: لم أعرفكما اعذراني.

قال سيف مستدركًا: لا حاجة للتعارف لقد التقينا أنا وأستاذة "شجن" وتعارفنا.

كان هاتفي يدق معلنًا اتصال جدتي، وكنت أعرف ما تريد، فاستأذنتهم وأخذت حقيبتي منصرفة وأنا أجيبها: مرحبا باغالية، نعم سآتي حالاً، طلباتك أوامر.

كم أضاف عم "فاضل" وجدتي لأيامي، حقًا كبار السن هؤلاء يملكون تجارب وخبرات سنين رسمت على وجوههم واختلطت بتجاعيدهم الطيبة،

تعلمت منهم أن التصرفات البسيطة لفعل الخير، ربما تلك الأشياء التي لم أكن لأفكر فيها، تضيء حياتي قبل أن تضيء حياة من أقدمها له، أننا نحتاج حقا تلك اليد الحانية التي تربت على آلمنا برفق، ولذلك علينا أن نعلّم كفوفنا الربت على آلام الآخرين، فالراحمون يرحمهم الله، وبقدر حاجتهم لتلك اليد الحانية بقدر حاجتنا للبذل والعطاء وعودة ذلك على نفوسنا بالبهجة والسعادة، التي طالما بحثنا عنها وتاهت منّا.

وفي طريقي للمنزل كنت أفكر؛ كانت الأيام تمر يومًا بعد الآخر وقد بدأت تكتسب لونًا آخر، لونًا مليء بالشغف، والإصرار.

بين الجامعة و(دكان الكتب) والمنزل كنت أنسج حياة جديدة مستعينة بكل إنجاز على وأد كل ألم، كان دكتورعادل سعيدًا بإنجازي ومحاولاتي الحثيثة؛ للخروج من نفق ألمي الشخصي.

أمي كانت سعيدة جدًا بهذا التغيير، أصحو مبكرا ولديَّ الكثير من الأشياء التي أحتاج إنجازها، وأعود وقد فرغت كل طاقتي أحكي لها عن كل ما فعلت خلال يومي.

وبعد دقائق كنت في المنزل، أحمل ما حملتني جدتي ورائحته تشي أنه أعد بكل حب، متوجهة لبيت دكتور "عادل"، وقبل أن أصل بقليل اتصلت لأخبره بوصولي، كنت أعلم أنه سيتأخر في الرد، فهو يوم العطلة وربما مازال نائمًا، لكن صوته وصلني متكاسلاً بالسلام، وما إن سمع صوتي حتى رد متحفزا بقلق:

هل حدث شيء ما؟

قلت أغالب إحراجي بدفعه كبيرة من السخرية: وهل صوتي يذكرك بالكوارث دائمًا شكرًا لهذا الإطراء.

أخرج زفيرًا ملتمسًا العودة لحالة الاسترخاء السابقة، وقال جالسًا: كلا بالطبع كيف حالك؟

أجبت بثقة: بخير حال الحمد لله أود الاسترسال في هذا الحديث الودي، لكنني أحمل حقيبة ثقيلة وأقف أمام باب شقتكم هلا فتحتم الباب سريعا أرجوكم؟

فُتح الباب وكان جسده يملأ الفراغ تتخلله أشعة الشمس الواصلة من النافذة الكبيرة خلفه وقد أطلّ من خلفه زوجين من العيون بفضول لرؤية الزائرة.

وقف "مالك" كتفًا لكتف جوار أبيه يرمقني بصمت من رأسي لأخمص قدمي، بينما امتدت كف "ملك" ممسكة ذراع أبيها وتجمدت الصورة لوهلة في عيني وأنا استعذبها، وتعذبني في الوقت ذاته حتى أن الدموع كادت تتزاحم بين جفوني، كانت لوحة آسرة حقا للأبوة لم أر مثلها أبدا، نموذج لأب استطاع أن يكون البطل في حياة أطفاله، ويتعامل مع ذلك ببساطة وكأنه شيء سهل.

قلت بسخرية لأخرج من تلك الضوضاء برأسي: مرحبا جميعا...

وتوجهت للصغيرين بنظري.

أحضرت لكم طعام جدتي، وهو طعام صنع خصيصا لكم بحب...

دخلت متقمصة دور ذات الرداء الأحمر الفخورة بما تحمل مما لذ وطاب، كانت هناك طاولة بمنتصف الردهة، بدأت أخرج اللفائف عليها وأفتحها بحرص لحقني الصغيرين متخذين مقاعدهم جلوسًا بينما استند دكتور "عادل" بجذعه على الحائط يراقب ما يجري مبتسمًا.

رفعت "ملك" رأسها إليَّ وقد اتخذت مقعدًا بجانب والدها وقالت: ألن تشاركينا؟

فرفضت بلباقة مؤكدة ضرورة عودتي للمنزل سريعا.

اقترب دكتور "عادل" خطوات وجلس مقابلي، قائلاً بلهجة تحمل مشاعر مختلفة كأنه يتذكر شيئا ما أو يحدث نفسه حديثا أشفقت عليه منه:

لم يعد لنا الطعام أحدهم منذ فترة طويلة..

ثم استدرك ضاحكًا:

لكنني طاهٍ ماهر ولدى "ملك" و"مالك" بعض مهارات أيضا.

ابتهج الصغار لكلامه، ولكن رائحة الطعام أسكتت الجميع، لأودعهم وقد بدؤا إلتهام أطباقهم الدافئة من يد الجدة بشغف الشوق لطعام الأم.

جدتي صارحتني منذ فترة أن"عادل" يود الزواج من أمي، بصراحة كنت لاحظت تقربه منها ولَم أملك ما أفعل، لكنه يوم جاء ووقف جانبي وجانب أمي، رأت جدتي أن واجب علينا أن نرسل له شيء ما شاكرين

شهامته، باعثين شيء من السعادة لأسرته، كما أفاض علينا باهتمامه يوم طلبنا عونه.

اليوم أحسست أنني لم أحضر فقط وجبة دافئة للبيت بل أيضًا أحضرت دفء شعور العائلة معها، تذكرت أيامي بملجأ الأيتام، وكم كانت تعني لي وجبة ساخنة وقتها، وكم بدت أمي بحضورها المتكرر بطلة أسطورية في عالمي الصغير وقتها، لأول مرة أكون سببا لمعنى كبير كهذا، لطالما كنت طفلة أمي المدللة المتذمرة أحيانًا، لكنني اليوم أرمق الصغيرين، وأرى كيف لكل شخص ابتلاؤه الخاص، ولا مفر منه إلا بالصبر عليه، كالقابض على الجمر لا ننسى الألم ولكننا لا نترك الحمد بكل حال.

خرجت من منزلهم أشعر أنني نضجت حقا، صارت حياتي أكبر من حيز احتياجاتي أنا فقط، اتسع أفقي من أحداث حياتي الشخصية ليحوي آخرين معي بأفراحهم وأتراحهم لأشاركهم جزء من كلاهما.

وعلى ذكرى الملجأ بدأت أفكر، ترى كم طفلاً بقى هناك؟ وكم طفلاً جاء ليتلقفه المكان؟ ترى أما زال الملجأ موجودا كما كان؟! وفي عقلي ارتسمت المهمة القادمة.

لقطة (١٠)

هل تعلمين يا صديقتي؟

اليوم أعترف، تحت وطأة تأنيب الضمير من كل قلبي أعلنها...

(أنا أسفة)

لطالما قصرت في حقها.. لطالما تجاهلت أنّاتها..

ربما عالجتها ببعض مسكنات تخرسها، متجاهلة طلبها الملح للراحة..

تلك الروح بداخلي التي كانت ومازالت تأن تحت وطأة أطنان من الأعباء والأشغال، حملتها لها رغم أنفها ولم أدع لها فرصة أي فرصة للتملص، أو طلب هدنة رغم علمي السابق بأنها أصلا تحمل بعضا من الآلام..

هل تعلمين؟ أنا حقًا أعتذر إليها اليوم، وأعدها ألا أحرمها حقًا حرمته عليها بالراحة ولو قليلا فقط حين تصاب بالسقم ربما أكفر قليلا من طغياني السابق..

فهل تراها تقبل؟

الفصل العاشر

نقطة ومن أول السطر

"عـادل"

حركة متسللة من خلفي في المطبخ أنبأتني أن مشاغبتي استيقظت، لكنني فضلت التظاهر بأنني مازلت غافلاً عن حضورها حتى وضعت كفها على ظهري بحركة مفاجئة بغية افزاعي، وأنا أكتم ضحكاتي لئلا أفسد ما تخطط له، ولكنني استدرت مسرعًا حاملًا إياها.

"ملك" زهرة حياتي والنسخة المؤنثة من ملامحي بعمر عشر سنوات، فصارت تضرب الهواء بكفّيها محاولة الفرار باستماتة لكنني أحكمت ذراعي حولها مقربًا عيناي من وجهها قائلاً بصوتٍ أجش: من تورط الآن؟!

كانت مازالت تقاتل للتخلص مما هي فيه، فقالت من بين ضحكاتها المتقطعة بلهاثها من فرط الانفعال: دعني لن أكررها أعدك.

كدت أماطل مستمتعًا، لكن "مالك " ظهر بفوهة الباب بوجه مظلم كعادته صباحا، فتركتها، راكضًا إليه لن أسأله بالطبع ماذا يجري فأنا أعلم أنه يستيقظ دائما بمزاج متعكر وقد زاد الأمر قليلا بعد مرض أمه.

وتفاقم بوفاتها، كأنه يتذكر كل صباح أنه أمه رحلت، ولم تعد تستقبله بحضنها الصباحي.

أدرت ذراعي حول كتفيه قائلاً بحماس: كيف حالك اليوم يا بطلي؟

ما خطتك لهذا اليوم الجديد المميز؟ لديَّ مفاجأة لك، لكن لأسمع خطتك أولا.

ارتسمت ملامح التفكير العميق على رجلي الصغير، وقد نجحت حيلتي في تشتت ذهنه عن انزعاجه الصباحي، وطفق يسرد ما عليه إنجازه اليوم، من دروس، وتدريب رياضي، وبعض ألعاب الفيديو خاصته.

مرحبا بكم بين جدران بيتي مع شبه أسرة تحاول التماسك، أنا صمام أمانها لئلا تنهار بعد كل ما جرى.

وصمام الأمان محتاج لبعض الدعم ليستطيع الاستمرار بذلك.

دعم طالما حصلت عليه بالدعاء الدائم أن يعينني الله، بسماع كل فيديوهات التربية، وكل فيديوهات التحفيز عن من مروا بظروف صعبة ونجوا منها، رغم ذلك.

أبي هل أعجبك برنامجي اليومي؟

كان صوت "مالك" ذو الثمانِ سنوات يتساءل بجدية، فقلت بثقة ضامّا إيّاه بين ذراعيَّ، دائمًا ما أثق بحسن ترتيبك للأمور.

بدا الفخر جليًا على وجهه الرجولي، رغم صغر عمره.

فباعدته عني قليلاً قائلاً ببطء مقصود للتشويق، أضف لذلك دعتكم الجدة لتناول وجبة عندها، ووعدت "شجن" بنزهة صغيرة.

كان قد مضى اسبوعين على لقائهم الأخير ل"شجن"، وأمكنني بسهولة رؤية السعادة ترسم خطوط البهجة على وجه "مالك" و"ملك"، لتمتلىء روحي بالسعادة، حتى أنني صرت أتفكر: أيّنا يساعد الآخر على تجاوز محنته، هل أنا أساعد "شجن" أم أن "شجن" هي من تساعدني؟

"شـجـن"

كان حديثًا يأخذ انتباهي أنا و"ندى" حتى تجاوزنا باب الجامعة بقليل، شعرت أن هناك من يراقبني، فبدأت أتلفّت بحذر، بعد لحظات أكتشفت أنه "فادي"، "فادي" الذي صار يتجرأ كثيرًا على التحدث معي مؤخرًا، لم أكن تلك الفتاة التي تحادث الشباب بأريحية وتؤمن بالصداقة بين الفتيان والفتايات أبدا، فلم يكن هذا ما ربتني أمي عليه.

لكنني يوما تجرأت وكتبت مشكلتي له وسط مشكلات الطلبة التي اعتاد قراءتها وحلّها في مواعيد محددة وسط الجامعة أمام جمهور عريض من الطلبة، ناشرًا بعضا منها في جريدةً أصبح يعمل بها في باب أسئلة للقراء.

ظل يحاول محادثتي من حين لآخر، أو إلقاء نظرة عابرة نحوي أثناء حديثه مع الجميع فتجاهلت ذلك كله، وأسعفني قرب موعد المحاضرة للهرب بسهولة، ولكنني فكرت أنه ينبغي عليَّ أن أجد حلاً آخر لتلك المعضلة، فلن يكون الهرب هو الحل دائمًا.

انتهى يومي الدراسي فتاخذت طريقي (لدكان الكتب)، كنت قد نويت البدأ بالقراءة منذ اليوم، كنت أرى المقبلين على القراءة في (دكان الكتب) فأتصفح وجوههم، لأجدهم الأكثر تعقّلاً بين من أقابلهم عادة من الشباب بعمرنا، كأن الكتب سكبت في روحهم حكمة، وزادت على أعمارهم أعمار من قرؤا لهم، يبتسمون برزانة، ويتكلمون بصوت خفيض متزن، يبعد كثيرًا عن الهرج والمرج اللامعقول، الذي أراه من البعض في ساحات الجامعة.

صارحت عم "فاضل" يومًا بتلك الفكرة فضحك وجهه قائلًا: القراءة تهذّب الروح يا ابنتي، العمر ليس أيامًا نقتلها ونحاول الإجهاز عليها وقطع وقتها بأي شيء وكل شيء، حلالاً كان أو لا، مما يستخدمه بعض شباب هذه الأيام كملهيات، هذه الأيام هي عمرنا، سنحاسب عنه فيما قضيناه.

ثم التفت إلي كتاب كان يضمد جروح صفحاته المهترئة بصبرٍ مكملاً:

الكتاب خير صديق حقًا، ثم نملك (دكان كتب) ولا نقرأ فنكون كالحمار يحمل أسفارًا؟

شعرت وقتها بالخجل من نفسي حقا، أتواجد يوميا هنا، ولم أقرأ كتابًا واحدًا بعد هنا.

رغم أن الكتب دائمًا بين ذراعي أرتبها في أماكنها، أكتب أرقام متسلسلة كيفما علّمني عم "فاضل" لتنسيق المكتبة، أرتب القوائم لأنصح من يطلب مشورتي من القراء بالقائمة المناسبة حسب عمره أو اهتماماته، نعم لقد

صرت خبيرة بالكتب أسمائها، وملخص محتواها، وبعض الكتّاب من كثرة ترديد أسمائهم للزبائن، لكن عيني لم تصافح السطور باهتمام.

لذا قررت سأبدأ اليوم قائمتي الأولى من الكتب، وهي قائمة بسيطة حقًا للمبتدئين كما أخبرني عم" فاضل".

أمسكت كتابي الأول وقد كتبت اسمي في خانة الاستعارة له في دفتر المكتبة بفخر، واضعة إيّاه بحقيبتي لحين عودتي للمنزل.

أتطلع لساعتي فقد اقترب وقت وصول "ملك" و"مالك" حسب الموعد المحدد مع والدهم، كنت قد رتبت لهم ركنًا في المساحة الخلفية للمحل بعيدًا عن المكتبة، لنرسم ونلعب سويًا قليلاً خلال وقت الاستراحة وأحكي لهم حكاية، وأوصيت "ميمونة" التي رحبت بحضورهم بصنع شراب منعش لهما، حضر الطفلان وقد ظهر من اللحظة الأولى تأملهما للمكان بشغف، لابتسم وأنا أرمق "ميمونة" الواقفة بجانبي بنظرة ذات معنى، تشي بأننا كنّا محقين حين اخترنا هذا المكان لنزهتهما سويًا، كانت علاقة لطيفة تجمعني "بميمونة" تلك الفتاة الطيبة ذات الوجه البشوش دائما، تلبي طلبات الجميع بسعادة، تتقن عملها بشغفٍ يشعرك كم هي سعيدة بما تفعل، تحضر المشروبات والأطعمة الخفيفة بحرفية، وتستذكر دروسها بجد وقت الاستراحة ووقت خلو المكان من الزبائن، لابد أن يومًا ما قد قابلت أحد أولئك الأشخاص ذوو النفوس المشرقة الراضية.

رغم ظروفهم المعيشية، وربما الاجتماعية أيضًا الصعبة، هؤلاء الناس الطيبين القلب، هم طاقة إيجابية تغذي حياة الآخرين حولهم، جلسنا حول الطاولة الصغيرة المعدَّة بيد كل منّا مشروبه بكوب كبير زينته "ميمونة" فأتقنت ذلك، كانت وجوه الأطفال تشع سعادة بابتسامة رائقة، قالت "ميمونة"، حسنًا سنبدأ بالقصة اليوم سأحكي لكم حكاية..

استرسلت "ميمونة" تحكي وأعين الأطفال تتسع انبهارًا بحكايتها الخيالية، وقد سافروا معها بعالم الخيال في أمتع رحلاتهم، لأفكر أنا: لِمَ لا نفتتح قسمًا للأطفال هنا؟

يحوي بعض الأنشطة، ونساعدهم على بدأ علاقتهم بالكتب، وعالمها مبكرا؟

بدت الفكرة رائعة، نعم سأخبر عم "فاضل" حين يأتي المرة القادمة.

صوت أقدام بين طرقات المكتبة جعلني أشير "لميمونة" أنني سأخرج لأرى من هناك، فأومأت متفهمة مكملة حكايتها، لكن ما وجدته بالخارج تجاوز خيال حكايتها جموحا! لقد كان "فادي".

بخطوات منزعجة ووجه متحفز متهم قابلته منتظرة أن يبرر لِمَ هو هنا؟

كان يقف بمواجهتي بإصرار ضاربًا بمحاولات تجاهلي السابقة له، عرض الحائط واضعًا كفَّيه بوسطه قائلا:

لماذا تهربين مني؟

قلت متمتمة: لست مدينة لك بشيء لأتهرب منك يا "فادي".

قال بحيرة: لكننا كنّا نحل الأمر بشكل رائع، فجأة توقفت عن كتابة قصتك التي كنت تضمنها الرسائل بالجامعة، لم أظنك هشة هكذا؟

قلت بثبات: ليس الأمر كذلك، أرسلت قصتي يومًا لأناقشها خارج نطاق نفسي دون الكشف عن هويتي، لكنك تتبعت القرائن لتعرف من أنا، تجرحني بمحاولة إعلامي في كل وقت أنك تعرف من أنا.

قال بحماس: كنت أساندك، أعلمك أنني عرفتك ومعكِ لحل المشكلة، لقد صارت المشكلة الأهم شهرة بالجامعة، ينتظر الجميع أن يعرف ما جَدّ من أحداث من بطلتها في خطابها اللاحق أليس هذا رائعًا؟!

ثارت دمائي بعروقي غضبًا خرج من فمي مع كلماتي التي أجاهد لئلّا يعلو الصوت بها فيصل للأطفال و"ميمونة" بالداخل:

اسمع يا سيد "فادي"، أنا لست بطلة لقصة ما تستمتع والآخرين بمعرفة أحداثها، أحداث حياتي ليست أبدًا للتسلية!

إذًا فقد رميتِ كل حلمكِ وراء ظهركِ وعُدتِ لحياتك ببساطة ناسية المشكلة كلها؟

كأن رنة سخرية بانت في صوته؛ فقلت بانزعاج: كلّا!

كتَّفَ ذراعيه، وقال محاولاً غرس أفكاره في عقلي: كل قصة تنجح صاحبتها أو صاحبها في حل المشكلة، تساعد الآخرين ليحاولوا أكثر في حل مشاكلهم.

برأيك ماذا سيكون رد فعل الجميع إن أعلنّا لمن تلك القصة على أرض الواقع؟!

وأن والدك هو السيد/ "محمود الشهراوي" شخصيًا!

الآن كنت أرمقه بخوف حقيقي.

اتكأ على الطاولة الحاجزة بيننا وأكمل: وقتها ستهتم الصحافة، وليس رفاق الجامعة فقط؟!

انهرت كليًا وأنا أجمع كلماتي بصعوبة وعصبية، محاولة إنهاء هذا الحوار الموجع، حوار يستخدم فيه كل قدراته لمبارزتي.

أمي لم تبحث في السابق كما وعدتني ربما تكاسلت لا أدري لما، لكن ليكن في علمك هي أوصلتني حقًا لأبي منذ أيام!

توقفت لالتقط أنفاسي المتسارعة ثم اندفعت قائلة:

نعم قابلت السيد "محمود الشهراوي"!

لطالما رأيته في التلفاز وعلى صفحات الجرائد مع أسرته السعيدة الصغيرة، ولَمْ يطف بذهني أنه هووالدي، ولا أدري كيف عرفت أنتَ ذلك؟!

التقيته ولَمْ أَجد ما كنت أبحث عنه، اكتشفتُ أن الضائع لَمْ يكن أبي وأمي؛ بل مشاعري أنا "شجن"، الصغيرة المحرومة كطفلة من كل اهتمام وحنان الأبوين، وهذا لم يعد ممكنًا العثور عليه!

لأنني لم أعد تلك الطفلة!

نظرة الدهشة التي اتهمت وجهه بالكامل، وتهدّل ذراعيه بجواره في صدمة أنبأني أنني تكلمت أكثر مما ينبغي؛ فأغلقت بركان شفتي وزممتهما متأخرًا جدًا جدًا على ما يبدو!

كانت عيناه متسعتان لآخرهما وهو يتكلم ببطء ويضغط على الأحرف.

إذًا جَبنتِ ولن توافقي على نشر القصة؟!

هل تعلمين كم أنفقت من الوقت لأساعدك، وأنت الآن رافضة حتى أن تساعدي نفسك؟

كاد يجذبني من ذراعي غضبًا لكن صوتًا ما دوي بالمكان عاليا...

هل لي أن أفهم ما يجري هنا؟

لقطة (١١)

وتظل تقول أن الأمر لا يستحق وأنك أكبر من ذلك بكثير وعقلك وقلبك يتسعان لكل شيء، ولكن لا يتسعان لصغائر الأمور كما تعتقد، لكن فجأة تكتشف أنها قطرات قطرة بعد قطرة رغم صغرها وضعفها إلا أن حائط قوتك تأثر أمام كثرتها في النهاية؛ ليظهر أنك أخطأت في حق نفسك كثيرا حين تغاضيت عن أول قطرة.

الفصل الحادي عشر

بقعة ضوء

دكتورة "منال"

كالمعتاد مررت بدكتور "عادل" بعد موعد الدوام لأطمئن منه على "شجن"، ليخبرني لأي حد صارت حالتها أفضل وأكثر استقرار، كان وجهي ينطق بسعادتي التي لا توصف بكلماته الصادقة.

لا أخفي عليك "شجن" تتحسن يومًا بعد يوم، يشتد عُودها، تتفتح على حقيقة الحياة بحلوها ومرها.

ثم أطرق مكملاً، وطبعا تعاونك الدائم سهّل الأمر كثيرا، مازلتُ أحتاج المتابعة معها حتى أطمئن أنها لم تعد تحتاج أي دعم مني، وصارت تتلقى الدعم بشكل طبيعي ممن حولها.

قلت وكلماتي تقطر خجلا، لم أتوقع أن يكون حبي الشديد لها وخوفي عليها من الهواء الطائر كما يقولون عقبة في حياتها.

قال مصححًا:

حساسيتك المفرطة تجاه كل ما تمر به أو تحكيه جعلتها تتجنب الحديث معك بصراحة، تخشي عليكِ أن تزعجك، يؤنبها ضميرها إن قالت ما تعلم أنه لن يكون سبب لسعادتك أبدًا، ومع قلة المحيطين بكم لم تجد من تثق فيه كفاية ليكون مستشارًا، ومصدر نصيحة موثوق!

"شـجـن"

لقد اكتشفت أنني لم أتكلم أبدا بالرغم عن كوني ثرثارة، وكنت أتحدث مع من حولي في كل شيء هزلي وغير ضروري؛ بينما كنت أدس وجعي بين ضلوعي بقسوة.

أذكر كيف صارت كلماتي مع دكتور "عادل" تخفف عبئًا كبيرًا طالما حملته، دون حتى أن أدري.

لقد كان كتماني كارثة كبركان يثور داخلي فأكتم نيرانه دافنة إيّاها، ربما أدت لانفجار داخلي أودى بحياتي يومًا ما دون أن يعلم أحد السبب!

حقًا حين أفكر لماذا يكتم أحد ما، ما يشعر به وما يزعجه طوال الوقت؟!

لماذا ننحر أرواحنا بتلك الطريقة؟!

ما الذي يستحق تحمل وطأة ألم هذا الكتمان؟!

اليوم أدركت أنه لاشيء؛ الأهم فقط اختيار من سيسمع؟

من سنثق بنقاؤه وبعده عن أذيتنا في أعز ما نملك؛ أرواحنا حين ندعها بين يديه بكل أسرارها.

كلمات دكتور "عادل" الداعمة عن علم، نصائحه المرتبة التي تساعدك لتدرك ماذا تريد حقًا لا تملي عليك ما يراه هو بشخصه.

علمني دكتور "عادل"..

يجب أن أفرغ ما أشعر به وأقوله بشجاعة مهما كان الضجيج الذي سيصنعه إن قلته، فمهما كانت العواقب أهون كثيرًا من أن أكتم مشاعري فتحدث تصدعات بروحي لا شفاء لها.

علمني دكتور "عادل" أن أشغل حاضري، وأوسع دائرة أنشطتي فيه فبقدر ما ينشغل حاضري، تهت دائرة الماضي وتظهر بريق دائرة المستقبل.

كل ذلك جعلني أسير اليوم بثقة أكبر وقد فهمت ذاتي.

كان لقاؤنا الأول بالمكتبة جلست معي مهندسة "إيناس"، ابنة عم "فاضل"، وكدتُ أضحك وأنا أرى فيها جانب لا بأس به من حكمة واطلاع عم "فاضل" شيء من ملامحه بها، شيئا كذلك من أخيها.

كانت تتكلم في أشياء متفرقة عن الحياة، تسأل أسئلة التعارف الاعتيادية.

تتأمل المكتبة بشغف وتحكي كم كان حلما وتحقق؟!

كم باتت ترسم كل ركن كيف سيكون؟!

ورتبت كيف سيكون وقتها يوميًا هنا، لكن حملها بأوضاعه وبعدها ولادتها منعوها التواجد.

ثم فجأة قالت بأعين مبتسمة لامعة، من كثرة كلام والدي عنكِ صرنا كلنا في المنزل نعرفك دون أن نراك، و"سيف" أيضًا يشكر كثيرًا في اجتهادك وذكائك في إدارة المكان.

بهت من كلماتها وداهمني الحرج فلم تسعفني الكلمات.

فهربت للحديث عن الكتب ورواد المكتبة وأشياء أخرى.

لكنها بعد فترة وبعدما ألفنا بعضنا سألت سؤالا لمحته في عينها من أول الجلسة قائلة بحذر:

ألم تفكري يوما بالحجاب؟

قلت لها مدافعة وأنا أتلمس خصلاتي الحمراء بتوتر، بالطبع سأتحجب فقط لم يحِن الأوان.

اتسعت ابتسامتها مستوعبة برفق مكمّلة، ومتى يكون الأوان برأيك؟

قلت معبرة عن رأيي: أرى الحجاب يستلزم الكثير من الالتزامات؛ ليس عليَّ لبسه قبل أن أكون قد تعلمتها بشكل كافٍ.

أومأت ضاحكة حين سمعت الأذان مستأذنة، سنكمل حوارنا بالتأكيد لكن لنصلي أولاً أين أتوضأ؟

قادتها "ميمونة" لمكان الوضوء تتجاذبان أطراف حديث هادىء بينما تتابع عيناي ملابسها، شيء ما في ملابسها يجذبني، تبدو عادية، لكن ألوانها رغم أنها هادئة فضفاضة ساترة لا تملك الكثير من خطوط الموضة المعتادة لكل عام، ولكنها تتناسق بشكل راقٍ للغاية يشي بطبيعة صاحبتها.

مددت كفي أكاد ألمس حجابها الملقى في انتظار عودتها من الوضوء، لكنني سمعت صوت الحمام يفتح فابتعدت باضطراب حرج.

لكنها لمحتني على ما يبدو فقالت برقةٍ تزيل عني الحرج، دعينا نجرب هذا الحجاب سويًا، تحمست كأنني عروس تجرّب ملابس عرسها، أو طفلة تجرب ملابس العيد مددت كفي أجمع شعري كما اعتدت، ثم أمسكت الحجاب محاولة تثبيته بشكل صحيح، بعد محاولات وصعوبة كان ثابت، لكن خصلات شعري كانت تخرج من جوانبه متمردة على هذا الأسر، وقد انتفش شعري من تحته فصارت رأسي كبيرة بشكل مضحك.

قطبت بين حاجبي منزعجة من النتيجة، كان عليها ملائكيًا جميلاً، اقتربت منّي مستأذنة أن أسمح لها بالمساعدة.

لكنها أخرجت من حقيبتها قطعة من قماش قطني ثبتتها على رأسي، فجمعت شعري كله داخلها ثبتت بعدها الحجاب فوقها بعدما انتهت ابتسمت قائلة: "تبارك الله".

التفتُ للمرآة فتعجّبتُ من شكلي كيف أصبح؟!

لكن جزءًا من قلبي لطالما كان منزعجًا ارتاح، رغم أنني لم أكن أعرف أبدًا مما هو متعب.

انصرفت وقد عشت معها ساعات لطيفة حقًا، لكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، فقد تجمد كل شيء حولي فجأةً، كنت وصلت قمة توتري، بدأت أشعر برعشة تجتاح جسدي، حاولت تحمل هذا الضغط العصبي والبقاء ثابتة، متكأة بكفي على المكتب أمامي، تراجع "فادي" مواجهًا "سيف" وهو يحاول إظهار قوة موقفه، من أنت أنا هنا أتحدث مع "شجن" في حوارٍ شخصي، ثم كتّف ذراعيه مكملاً، أعتقد أنه لا شأن لك به.

اقترب "سيف" وقد كان الغضب يشع من عينيه بشكل مخيف قائلاً بصوتٍ خفيض محذرًا، ربما تكون تعرف "شجن" كما تدعي، لكن هذا لا يسمح لك بالتطاول عليها، أنت هنا في مكاني فتفضل اخرج من هنا، وتأكد أنني لن أتأخر عن طلب الشرطة، فلن ألوث يدي بالتعامل معك بنفسي وأنا قادر على ذلك، وهناك أكثر من شاهد على تعرضك لها.

مع كلماته تذكرت "ميمونة" والأطفال فالتفت بذعرٍ لمكانهم، لأجد "ميمونة" دخلت معهم لأقصى نقطة ممكنة بغرفة داخلية، فحمدت الله على حسن تصرفها، وأنهم ليسوا هنا ليشاهدوا هذا الموقف الهزلي.

يبدو أن "فادي" لم يكن واثقًا من موقفه كما ادعي، إذ حدّق في "سيف" بنظرة ساخرة، ثم انصرف دون كلمة إضافية.

لكنني لم أكن أملك نفس الفرصة للهروب من ذاك الكابوس، انتظرت أن يتكلم "سيف" بدا يحاول السيطرة على انفعالاته قبل أن يتوجه إليَّ مطمئنًا، هل أنتِ بخير؟

انهرت جالسة على أقرب مقعد مكتفية ببعض تمتمات لا تعني شيئا.

كان يقف أمامي يقول كلماته بغضب وثورة؛ على والدكِ أو أخيكِ التواصل معه ماذا كان ليجري لو لم أكن هنا، يبدو مندفعًا للغاية وغير متزن أبدًا، عليكِ أن تهتمي بحفظ المسافة بينك وبين مثل ذلك الشخص تحديدًا أكثر من أي شخص آخر.

ثم سأل بحذر، هل هو خطيبك؟

قلت متمتمة: مجرد زميل جامعة.

كدت أضحك بمرارةٍ فاضت داخلي، هذا الذي أدعوه الآن زميل وآنف حتى من كونه كذلك؛ اندفعت في البداية في رؤيته كبطل، نعم انسقتُ لإحساسٍ أن هناك من يفهم ما أمرُّ به، كان وصفه لمشاعرنا دائمًا دقيق، يفهم المشكلات ويتحدث عن مشكلة كل منّا أفضل من صاحبها واضعًا الحلول؛ ببساطة تمنيت لو استطعت حل معضلة حياتي ووجدته الحل البراق!

ولكنني أدركت أنه مختلف عما ظننت، هالة النور حوله كبطلٍ شجاعٍ قادرٍ على المواجهة مع الحياة يساعدنا لإيجاد حلول مشكلاتنا؛ بهتت بشكل مفاجيء حتى صارت شاحبة بلا معنى!

رغم كل انكساري، كرهت أن يراني أحدهم كذلك فلملمت أشيائي محاولة الانصراف، خرجت "ميمونة" بوجه شاحب وقد ألهت الأطفال بشيء ما بالداخل، كانت أعينها تتساءل إن كنتُ بخير، لم أجسر على مواجهتها حتى، فحاولت الخروج من المكان، فتعثرت خطواتي لأسقط على الأرض مرتطمة بها بعنف، هل بقي شيء من كرامتي المراقة اليوم؟!

التفَّت ذراعاها حولي تسندني لأقرب مقعد، وكأن همومي ثَقُلتْ على جسدها النحيف، وفجأة امتدت يدٌ أمامي، كان "سيف" يحاول المساعدة وقد بدا على وجهه القلق سائلاً هل أنتِ بخير؟

كانت يده تمتد أمامي، لكنني كنت أضعف من أن أتمسك بها، رغم أنني احتاجها بشدة، لكنني انتفضت بهلعٍ، واقفة مواجهة له قائلة بصوتٍ أردته صلبًا لكنه كان مكسورًا للغاية، أنا بخير لا أحتاج المساعدة.

سحب يده إلى جواره برصانة، وكأنه لامس جرحي الذي أحاول إنكاره، وواجهتْ عيناه خارج المكان، كيلا يزيد ألمي قائلاً برزانةٍ، كلنا نحتاج المساعدة أحيانًا...

لا تثقلي على نفسكِ!

رمقته من خلف دموعي التي هطلت رغم عنّي، وقد تركتها تنساب مستسلمة برفقٍ أكَمَلَ، أنا هنا إذا احتجتِ أي شيء.

ثم ابتعد قليلاً تاركًا إيَّاي برفقةِ "ميمونة"، أين سمعت تلك الكلمات من قبل؟!

نعم! قالها "فادي" يومًا وصدقتها، لكنني ما عدتُ بهذا الغباء بعد الآن.

وكأنني حين تذكرته، تذكرتُ كل ما أزعجني؛ فاكتفيتُ بكلماتٍ عن وجوب ذهابي، ورغبتي بالهرب. أتذكر أنني تخيلت "فادي" يومًا ما طوق نجاة، بل بطل أسطوري يرتب حياتي المبعثرة!

بدا اليوم شخصًا آخر غير الذي عرفته. لم يكن لدي كلمات أقولها "لسيف"، كيف أخبره أنه لا والد وإن كان موجودا على الورق، لا أخ، لا أسرة بالمعني الذي تربيتَ أنت عليه في أسرة الوالد فيها العم "فاضل"؟

وكأنني أخلع ثوب ستر أخفى تحته ما أخفى، أحسست بشعور ضعف ينخر داخلي فحاولت الانصراف قبل أن أنهار أكثر، وعلى سريري في المساء زارتني أفكاري، فحاولت مقابلتها بشجاعة قلبي الجديد، كنّا في حلبة مصارعة أنا وأمي وأبي وقد استطاع التغلب علينا بالضربة القاضية في مباراة لم نسجل فيها ضربة واحدة، ولكننا تلقينا الكثير وخسرنا عمر كامل وأسرة.

لم يكن يصلني منه شيء من بعد تلك الزيارة في بيتنا، حتى أنني تساءلت لِمَا جاء حقًا؟ كنت دائمًا ما أفكر، هل تذكرني يومًا بعد ما رميني هل بقيت أي ذرة ضمير تؤنبه؟! هل يعتقد أنه حين يرمي لي شيك من حين لآخر يحمل رقمًا ذا أصفارٍ أنه يكفي لدرأ فعلته؟!

طالما حاولت أن أنسى، ولكن قلبي رفض أن يسامحه؛ هذا شيء لَمْ أستطع تجاوزه.

لقطة (١٢)

دوائر الحياة ترسم العلاقات بين البشر..

اليوم أنتِ هنا وغدًا في مكانٍ آخر، ترقبين اقتراب دائرتك وتقاطعها مع أخريات..

لكن تصاريح الأقدار تقربكم تارة، وتبعدكم أخرى، ربما بغير ما ظننت أن دائرة الحياة هكذا تدور...

يبقى الأهم أن تتركي بكل دائرة بصمة، وفِي كل نفس كنت معها بسمة...

أن نتعلم كيف نقترب، وكيف إن باعدتنا الأقدار، نبتعد تاركين خلفنا أثرا طيبا!

الفصل الثاني عشر

بداية جديدة

"شـجـن"

وكأن حديث "فادي" حرّكَ آلامي التي كنت أحاول التعايش معها بالكاد، وقفتُ أمام مرآتي أواجه نفسي في الصباح التالي، هل فعلاً جَبنتُ كما قال؟!

إن لم أكن جبنت من نشر القصة كما أدعي، لكنني جبنت حقًا عن استكمال طريق الحقيقة، صرت أتناسى الموضوع، اكتفيت أن التقيت بأبي، ويأست حين لم أجد أمي بمحل إقامتها الوحيد الذي عرفناه بعد بحث طويل.

لماذا لا أسأله عنها؟

كان شريكًا في الجرم، وعليه أن يكون جزءًا من الحل كذلك!

رحت أبحث عن البطاقة التي تركها مدون عليها رقمه، في الدولاب والأدراج المختلفة، حتى وجدتها محدثة بعثرة لا بأس بها.

وجدتها أخيرًا، وقفزت للأعلى محتفلة بذلك وأسرعت لهاتفي.

فاجأني دخول أمي مودعة قبل ذهابها للعمل، "شجن" حبيبتي سأذهب للعمل الآن.

راعها منظر الغرفة فرفعت حاجبًا مستفسِّرا، فقلت كاذبة، كنت أرتب أغراضي يا أمي.

لم تبدو مقتنعة تماما لكنها حاولت التفهم، حسنًا حبيبتي أراكِ لاحقًا.

فور ما انصرفت أخرجت البطاقة من خلف ظهري رامية بجسدى على السرير وباليد الأخرى صففت أرقام هاتف والدي لأول مرة، أخذت نفسا عميقا لبث الثقة في نفسي، ما الذي سيحدث على أية حال؟ لا شيء!

هكذا طمأنت نفسي به، بالتأكيد مجرد اتصال هاتفي لن يضر، ضغطت زرالاتصال، وبدأ الطنين المنتظم ليزداد وجيب قلبي معه، أراجع في عقلي الكلمات التي سأقولها مرارًا وتكرّار.

فُتح الخط على الجانب الآخر، فكدت أغلق الخط هربًا، لكنني دفعت الكلمات دفعًا عبر شفتي في نوبة شجاعة "السلام عليكم ورحمة الله".

ثم أكملت بسرعة كمن يخشى أن تخونه شجاعته، أنا "شجن".

جاء صوته مرحبا، أهلاً صغيرتي "شجن"، أي صباح سعيد أرسل صوتك لي عبر الأثير؟!

هذا الرجل يصيبني بالشيزوفرينيا حقًا، حفاوته لا تتسق أبدا مع ما فعله بالماضي، أغلقت عيني بقوة كأنني أغلق الطريق على أفكاري محاولة إكمال المكالمة وفق ما خططت له.

سيكون سعيد لي، كذلك إن أجبت سؤالي!

صمتٌ ثقيلٌ، وأنفاس حملتها لي سماعة الهاتف، فأكملت خشية أن يغلق الخط بصوت مرتعش حمل بؤس العالم وضياع طفلة صغيرة:

أين أمي؟

وكأنني سمعت زفرة مشتعلة أكمل بعدها بسخرية لاذعة، يبدو أنه ليس صباحًا سعيدًا للغاية، ما ذكركِ بها الآن؟!

قلت وقد بدأت دمعاتي تنهمر، أ أنا لم أنسها أبدًا، ولم أنسك كذلك رافقتما أحلامي وكوابيسي طوال أعوام طفولتي وصباي وشبابي!

قال بصبرٍ نافذ، تملكين أمًا رائعة رأيتها معكِ بالفعل!

قلت رافضة ومتوسلة، أرجوك أخبرني!

أرجوك..

أريد أن أرتاح..

أن أجمع شتاتي من بين أرجاء الماضي، ألم تقل أنك تحبني؟!

قال بصوتٍ غاضبٍ مرتفع، حتى أنني أبعدت الهاتف فزعًا.

لو كان خيرًا لكِ، ما كنت أبعدتك من الأساس!

ألم تفكري يومًا لما تركتك حيثما تركتك.

انهرت جالسة على الأرض مسندة ظهري للسرير مجيبة بصوتٍ ضعيفٍ لا يكاد يُسمع:

ليتك أخبرتني..لِمَا؟!

لِمَا خضت كل هذا العذاب؟!

قال بثقةٍ وإصرارٍ..

لأن هذا كان الاختيار الصحيح..

يوماً سيكون لك أبناء وستعلمين، لم أكن أبدًا لألقيك لزوج أم ولا زوجة أب، تعانين التفرقة مع أطفالٍ آخرين، ترمقين اكتمال حياتهم ونقص حياتك، حيث تركتك كنت واثقا من المساواة في التعامل التي ستحصلين عليها.

بتعجب عصبي، أكَمَلَ، ألم تدركي هذا بعقلك أبدا؟!

أدركت أن الحوار، حوار من جهاتٍ مختلفة لن تتفق أبدًا.

بدا لي مجنونًا أو على شفير الجنون!

لم يحتمل قلبي أكثر، فأقفلت.

لم يعد الاتصال بعد إغلاقي المفاجيء، ولم أكن سأجيب ولو اتصل.

جلست أفكر بيأس، كيف تبحث أُمًا عن طفلتها الضائعة؟

بقسم الشرطة؟

ربما في أحياءٍ، وشوارع البلدة؟

كيف يمكننا إيجاد المفقودين؟!

كانت عجلة الحياة تدور، وتدور، دون توقف كما هي العادة، كان عليَّ أن أحمل أوجاعي أغلق عليها بابًا ما، مجبرة جسدي الثقيل على التحرك والذهاب للجامعة ثم المكتبة ثم العودة للمنزل كالمعتاد.

كانت المحاضرات خفيفة بكلية نظرية، أحضرها على سبيل أداء الواجب، يتلو ذلك ذهابي للمكتبة، ترتيب الكتب، وتنشيط الموقع، استقبال الروّاد، وبعض الدردشة مع "ميمونة"، لكنني اليوم كنت أهرب من أي حديث أدس رأسي بين دفتي الكتاب، وما أن انتهي منه حتى أدس رأسي بكتابٍ آخر، هكذا كان "ديدني"، هل هي محاولة أخرى للهروب؟!

طرقات خفيفة على المكتب أمامي دفعتني لأرفع رأسي، كانت أمي مبتسمة، "مساء الخير".

قمت مرحّبة بدهشة، أمي أنتِ هنا؟

هل أنتَ بخير؟

قالت ضاحكة: نعم كل شيء على ما يرام أخذت اليوم أجازة، لنمضيه معا، ما رأيك؟

قلت محاولة استدعاء روح المرح، نعم سيبدو هذا لطيفًا ومميزًا!

ترمقنا من مكانها خلف الطاولة "ميمونة" بوجهها البشوش، مشيرة لي بالذهاب.

قلت بتردد: لكن المكتبة؟

ردت "ميمونة" بثقةٍ السيد "فاضل" قال أنه سيأتي اليوم إنه على وصول لا تقلقي.

لم يكن لدي أي حجة بعد.

فخرجت أمي متسائلة عن وجهتنا، حسنًا إلى أين سنذهب؟

قالت مشوّقة إيّاي: خمني؟

اتخذت موقعها خلف عجلة القيادة، وجاورتها متسائلة، مطعم ما؟

مكان للنزهة؟ للتسوق؟

كنت أسرد الأماكن المختلفة التي اعتدنا قضاء وقتنا فيها معًا، وكانت تهز رأسها رفضًا في كل مرة.

حتى اكتفيت بالنظر لها منتظرة كشفها عن هذا المكان، فرفعت إصبعها لجانب رأسها حاثة إيّاي على التفكير أكثر.

كنت أراقب الشوارع حولي علّها تعطيني فكرة ما، وقد اندمجت في اللعبة.

توقفت السيارة أمام مبنى قديم، لم أذكر أنني رأيته من قبل، وعلى الإضاءة الخافتة في الشارع، لم يتسن لي فهم ما يجري، فسألتها ولم أفلح في كبح فضولي أكثر، لا أفهم! أين نحن؟

أوقفت السيارة بشكلٍ مناسب ثم ترجلت فتبعتها، لتمسك كفي بثقة مؤكدة: ستعرفين حالا.

دخلت معها المكان متوقعة كونه لأشخاص عرفتهم مثلاً قديمًا، أو أحد الأقرباء مثلاً.

بمجرد تجاوز عتبة المكان بدا لي بشكل ما مألوفا.

تلك البلاطات في الأرضية أعرفها، تحركنا للأمام وهي تزيد من تمسكها لكفي، لألاحظ المكان بنظرة شاملة، الطاولة الكبيرة بالمنتصف، الكراسي الصغيرة المصفوفة حولها. عيون الصغار المحدّقة بنا، ومشرفة المكان المرحّبة بحفاوة، والتي يبدو من حديثها مع أمي أنها على عكسي كانت على علم بهذه الزيارة.

كأن العالم التفّ من حولي فجأةً، فعدت بعجلة الزمان للخلف سنوات كثيرة، سرت رعدة ما بأوصالي وأنا أستشعر خوفا أعرفه، جلست لأقرب كرسي صغير أتلمس الطاولة شبه غائبة عن الوعي.

حتى أنهت أمي حوارها لتجاورني قائلة، بعض الأماكن تعني الكثير، تبعثرت فيها أجزاء منّا، ربما كان علينا العودة إليها لالتقاط ما فقدنا؛ صحيح؟!

نادت المشرفة الأطفال ليتجمعوا حول الطاولة، يبادلوننا نظرات فضولية متطلعة، لتخرج أمي طبقًا كبيرًا من الحلوى كان في حقيبة حملتها طوال الوقت، اندفع الصغار يتشاكسون من يحمل أكثر، والمشرفة تحاول تهذيب سلوكهم بشكل لطيف، امتدت يد أمي تحوي قطعتين من الحلوى، قطعة لي، وقطعة لها.

نعم لقد كنت هنا يوم التقينا!

لقد تأكدت الآن أين شاهدت كل هذا..

ربما تغيرت المشرفة وتغير الأطفال، لكن المكان بالكاد تغيرت فيه بعض التفاصيل البسيطة.

رن هاتفي بوصول رسالة، فتحتها لأجدها من أبي، كانت صورة شيك مصرفي مذيل بتوقيعه ويحوي رقم به بعض أصفار.

ضحكت بيأس لن يفهمني أبدًا صحيح!

لازال يحاول لعب دور الأب المثالي البريء منه براءة الذئب من دم يوسف.

ربما ليست كل الحكايا تكتمل، ربما عليَّ الحفاظ على ما بقي مني، تقبل وجود بعض الأجزاء الغير موجودة، سيظل هذا مؤلمًا لكنه ليس مستحيلاً.

انهى الأطفال طعامهم بسعادة لتحكي أمي حكاية طفولية طويلة عن أميرة جميلة وقوية ذات شعر أحمر وقلب قوي ساعدها لتجاوز كل الصعوبات، أنهتها ليتقافز الصغار لاحتضانها بحب وتلقائية، لتمتد كفها جاذبة إيّاي داخل حدود هذا الحضن الجماعي المفعم بمشاعر كثيرة.

خرجت من هذا المكان بوجه غير الذي دخلت به، أشعر أنني يجب أن أحمد الله على ما وهبني من نعمٍ كثيرة، ودون ترتيب مُسبق قلت، أمي أريد تغيير هذا المكان..

قالت مشجعة، هذا رائع، المكان يحتاج الكثير من التجديدات أحاول المساعدة لكن ليس بالشكل الكافي وحدي، ولكننا نحتاج ميزانية ضخمة لذلك..

قلت بثقةٍ الميزانية موجودة..

نظرت أمي لي بتعجب منتظرة تفسيرًا لكنني سبقتها للسيارة دون كلمة إضافية، سيكون عليها التخمين لمراتٍ كثيرة قبل أن أخبرها ببساطةٍ؛ أليست هي صاحبة تلك اللعبة؟!

لقطة (١٣)

من الغباء أن نظل رغم تغير العالم من حولنا كل يوم بسرعة كبيرة؛ أسرى للقطةٍ واحدةٍ توقفت حياتنا عندها، محبوسون بإطارٍ وهمي من صنع خيالنا للماضي، بل علينا كسر هذا الإطار بقوةٍ، رفض سيطرته علينا وعلى مستقبلنا، لننطلق لمستقبل أكثر إشراقًا نستحقه!

الفصل الثالث عشر

ومضة

"شـجـن"

كنت ما زلت في حربي الرتيبة مع صراعي الداخلي مع الماضي وجراحه، لكنني كنت أقاوم بصلابة تزداد يومًا بعد يومٍ، قوة أغذيها بلقاءاتي المتكررة بدكتور "عادل"، الذي ينتشلني من عمق ظلام يأسي، تسانده أمي الحنونة باهتمامها، "ندى" بخفة دمها واهتمامها تشاركني كل ما أفعل، وكان للدار وتجديدها أثر كبير في نفسي...

كنت قد اعترفت لأمي بإرسال أبي المال لي، وأنني لا أنوي صرف قرش منه على نفسي، لكني سأهبه للدار داعية الله أن يبرد حر قلبي، وحر قلب كل طفل مرّبمثل ظروفي في نشأةٍ صعبة يقاتلها طوال الوقت محاولاً العيش بشكل سوي، موقنة أن هذا هو طريق النجاة الوحيد مما أعانيه.

كنت أجلس في المكتبة على كرسيّ أمام أحد الطاولات، وأمامي على الطاولة تناثرت صورا كثيرة مختلفة لديكورات غرف أطفال وحضانات الدراسة الخاصة بهم.

وقد انتويت دمج الديكور؛ ليكون جزءًا منه كتصميم بيت حميمي لغرف النوم، ومكان آخر للدراسة بأفكار مختلفة تماما.

كنت أنتظر "إيناس" التي سَعَدت جدا بمشروعي، ووعدتني بمساعدتي في الديكور دون أجر، كانت لقاءاتنا المكتررة قرّبت بيننا كثيرًا، كنت أحسها أختا كبرى تؤنس حياتي بشكل محبب.

أتانى صوت فتح الباب الخارجي فعرفت أنها هي، نهضت مستقبلة إياها فتطايرت بعض ورقاتي من الطاولة، فانحنيت أجمعها بحرص يدًا بيدٍ مع "ميمونة" الحاضرة دائمًا وقتما احتجت المساعدة، لتطل علينا "إيناس" وهي تتساءل ساخرة من الأوراق المتراكمة، كل هذه التصميمات للدار فقط؟ أم أنك نويت فتح مكتب ديكور؟

ضحكت من قلبي معانقة إياها بدفءٍ استقبلته بما يليق به من حب أخوي، أفلتها بعده لنجلس متجاورتين فأجيب سؤالها المعلق، صراحةً، كل التصميمات جميلة!

الأمر محير حقا!

بدأت تشرح لي لفكرة اختيار ديكور مريح للعين، وجميل المظهر، ثم مدت كفها تتصفح التصميمات المختلفة، وتبدي رأيها بكل تصميمٍ حتى قسمتهم أخيرًا لمجموعتين، مجموعة سنقتبس منها روح ما نحتاجه من تصميمات وهي متناسقة معًا، ومجموعة ترى أنها لن تليق بالمكان...

ثم كتفّت ذراعيها ووجهها يشرق بابتسامة واسعة، منتظرة ردي على شرحها التفصيلي السابق، فرشفت من كوب العصير المنعش الذي أمدتنا به "ميمونة" مشاركتنا جلستنا وعينيها تومضان بالإعجاب بالفكرة، لأقول بتقرير..

أرى أن الخطوط الأساسية اكتملت، ربما علينا التفكير بالتنفيذ.

قالت "إيناس" بثقةٍ، لديَّ شخص ممتاز لمتابعة التنفيذ.

ثم أخرجت هاتفها بحماس ثم لامست شاشته عدة مرات، لتنتظر بعدها إجابة الطرف الآخر.

نهضت "ميمونة" تجمع الأكواب الفارغة، وتواصل عملها بالداخل، وبقيت أترقب ما ينتج عن تلك المكالمة والتي تعني البداية العملية لتنفيذ حلمي.

تابعت مكالمتها بشغفٍ، وفهمت أنها تكلم "سيف" مؤكدة حسنًا؛ إذًا ربما عليك الحضور لفهم كل التفاصيل ونقلها له ليبدأ العمل من الغد.

ثم مدت كفها تربت على كتفي بود، صاحبة المشروع في عجلةٍ من أمرها..

لمعت عيناي بشغفٍ لامحدود، وانطلقت الألعاب النارية تضيء سماء سعادتي بلا حدود!

أغلقت الخط قائلة، دقائق وسيكون هنا..

لكن هاتفها رن مجددًا، وكانت هذه المرة أمها تشكو بكاء الطفل المتواصل ووجوب عودة "إيناس" بسرعة، فودعتني على عجل، طالبة مني تسليم "سيف" الأوراق فور حضوره وإطلاعه على الأمر بشكل عام، وهي ستتكفل بشرح التفاصيل العملية للتنفيذ.

كنت مضطرة لشرح الفكرة كلها له حين وصوله، خطة تجديد الدار، وإطلاعه على الصور، وتبقى التفاصيل الفنية مع "إيناس".

لم تكد "إيناس" تنصرف حتى ولَجَ هو مُلقيًا التحية عليَّ أنا و"ميمونة" لنجيبها مرحبين، طوال عشر دقائق، شرحت له الأمر بإيجاز وهو يهز رأسه موضحًا استيعابه للأمر ليسأل بعدها بتوجس، لِمَا كل هذا الاهتمام بالديكور؟!

قلت مدافعة، بالتأكيد شكل المكان الذي نعيش به ينعكس على دواخلنا، صحيح؟!

من حق الأطفال مكان مبهج..

بدا كلامي ساذجًا له فقال معترضًا، الأطفال بتلك الظروف بحاجة للمال لقضاء حاجاتهم الأساسية، ولا يفكرون بتلك الرفاهيات التي تفكرون بها أنتم أصحاب الطبقة المخملية! ربما علينا إعادة التفكير في استغلال الأموال بشكل أكثر فائدة للأطفال.

لا أدري لِمَا اندفعتْ العبرات لعيني، مع زيادة حرارة جسدي لأجيب بنزق، لا أرى الأمر كما تراه حقيقة..

ولا أعتقد أنك قادر على فهم شعور أولئك الأطفال، وما يحتاجونه وما لا يحتاجونه.

بدا في كلماتي شيء من الحدة وأنا أكمل، يمكنك مساعدتنا أو رفض المشاركة إن كان الأمر يزعجك، لكنه مشروعي بأموالي وسيكون حسب رؤيتي.

بدا مستغربًا انفعالي الغير مبرر، ليقول متراجعًا رافعًا كفيه في اعتذار:

لا بأس؛ كنت أشارك الفكرة لصالح الجميع ليس أكثر!

داخلي كانت الطفلة الصغيرة التي اشمأزت يومًا من المكان الذي لا يبدو مثل المنزل ثائرة_وقد نصّبَته عدوًا تصب عليه جام غضبها_فأكملتُ ببأسٍ، شكرا لتعاونك.

ناولته الصور الخاصة بالتصميمات، فجمعها صامتًا متجنبًا اشتعال الأجواء أكثر، بدا سينسحب للخارج في هدوء لم تسمح المشاكسة داخلي به، فرميت ظهره بالكلمة التي أوجعتني، لست من تلك الطبقة المخملية كما تظن!

خرج يهز رأسه غير مصدق، ملوّحًا بالسلام تجاهي أنا و"ميمونة".

بمجرد انصرافه بدأت الطفلة بداخلي تتوارى، لأعود لرشدي مدركة من عيني "ميمونة" مدى حماقتي، وتصرفاتي الغير مبررة!

زفرت بحزنٍ، كيف أشرح لهم ما أمرُّ به؟!

بعض الأشياء من العسير توضيحها.

جلست أقلّب صفحات الشبكة العنكبوتية بلا هدف.

ومضت بذهني فكرة جديدة!

رفعت الهاتف أمام وجهي وقد تقافزت أناملي تكتب على محرك البحث كلمات متتالية.

(أطفال مفقودون)

اصطف أمامي الكثير من صور المفقودين وصفحات البحث عنهم، آلاف من الصور تحمل ذات الوجع بملامح مختلفة!

في كل صورة رأيت قلب أم مفطور ككقلب أمي وطفل تائة مثلي تماما!

كأننا يوم نضيع؛ يضيع جزءًا من ذواتنا لا نستعيده بعدها أبدًا، تظل الأجزاء المفقودة من قصتنا جرح نازف لا يتوقف أبدًا.

حاولت البحث بشكل أكثر تحديدًا، فأضفت طفلة مفقودة، ثم أضفت العام المفترض أنني فقدت فيه.

كان الأمر جنونيًا تمامًا حين أضفت اسمي "شجن"، لكن النتيجة كانت أكثر جنونًا!

لا شيء يعبر بي من تلك الفجوة المظلمة من حياتي، إلا بحثي الذي لا يوقفه أي شيء، أنا وإن كنت وجدت أبي كما وجدته لم أُصدم!

لم أكن أذكر الحكاية يوم خذلني، وكأن عقلي تجاهلها عمدًا ليخفف وجع قلبي لكني تذكرتها فور رؤيتي لتفاصيل وجهه، مازلت أبحث عن أمي، أتساءل ترى كم بحثت عني؟!

متى يأست؟!

كيف واصلت حياتها؟!

كيف هي الآن؟!

ترى كيف تبحث أم عن ابنتها التي هرب بها أبيها؟!

أيّ الطرق تتعثر بها خطواتها الفزعة؟

أيّ عثرات تقف بينها وبين مُرادها؟

أعرف أنها لم تجدها، ولكن لا أعرف أين انقطع خيط البحث، بحثت في بلاغات الأقسام عن بلاغ باسمي لكنه لم يكن موجودا!

كانت تعرف أن نفوذه لن يسمح بالبحث بالطرق القانونية، تعرف أن نفوذه يقيدها ويغل يديها.

بكيت بقهر!

وكأنني أستشعر مشاعر أمي المكلومة، وخطر لي خاطر ساذج فكتبت على محرك البحث على هاتفي المحمول، "شجن محمود"، خلال ثانية ظهر أمامي أكثر من منشور عن مفقودة بذات الاسم!

صرت أدخل من منشور لآخر بنظرات محمومة تأكل عيناي الكلمات أكلاً.

منشور أخير لفت نظري بعدما كدت أيأس، مضمن بصور لطفلة بعمري تقريبا يوم فُقدت، وصورتها صورة تشبهني إلى حدٍ بعيد، هل هي أنا؟!

بنقاط نمشي، بشعري الأحمر ولكنها ممتلئة الجسم عنّي قليلا!

دققت النظر بأنفاس مبهورة، اشتعل الفضول بداخلي أطالع السطور كالمحموم.

وأمام عيناي كانت تلك الكلمات:

"شجن" "بنتي"!

ضاعت مني!

أنا المخطئة، قولوا لها أن تسامحني...

كانت كلمات مثبّتة في أول الصفحة، تلتها بعض صور لمن أتخيلها، أنا بعمر ٣ أو ٤ سنوات.

ودعوات من كل من دخل الحساب؛ "قادر ربنا يردها، الله يرجعها بالسلامة".

كان المنشور طرف الخيط يحمل السر كله والحل أيضًا، تركت رسالة للمسؤول عن الصفحة منتظرة رده حاملاً الأمل بالتوصل لصاحبة الإعلان عن المفقودة.

لقطة (١٤)

ينبغي على كل شخص أن يتنازل عن كبرياء الأنا..

أن يملك من التواضع ما يجعله ينظر لمرآة نفسه بصفاء معترفًا بأخطائه..

مصححًا لها فهي تضره قبل الآخرين، والكمال لله وحده..

لكن علينا أن نحتفظ أيضا بعزة النفس والقدرة على دفع الضرر عن ذواتنا، إن وقع من أحدهم علينا وهنًا..

تتوازن الكفة باعتدال هو المنشود...

الفصل الرابع عشر

لحظة فارقة

حتى لو وجدناها، فقد تأخر الوقت!

آخر جملة تحديدًا من المنشور، اعتصرت قلبي قلقًا دون أن أفهمها!

كان جسدي يرتعد ودموعي تنساب بلا توقف، تحرك الهاتف بين يدي معلنًا.. اتصال أمي:

"السلام عليكم".

رددت، وقد حاولت استعادة رباطة جأشي:

"وعليكم السلام".

ثم تلعثمت مكملة كيلا تقلق من صوتي المتغير:

أنا بخير يا أمي..

قالت بصوت مرهق بعد مناوبة عمل طويلة، الحمد لله حبيبتي.

فقط أردت أن أطمئن عليك.

حبست الكثير خلف شفتي المغلقتين فليس الوقت مناسبًا وقلت بصوت بدا لي أجوف بلا معنى، أنهيت عملي بالمكتبة دقائق وأكون بالمنزل.

أغلقت الهاتف وأنا أنظر له متسائلة، ماذا بعد؟!

لمن المنشور؟

هل هي أمي حقا؟

ليتني أستطيع اختراق كل الحواجز والقفز عبر الشاشة لأفهم!

لحظات فارقة في حياتنا...

لا يعود ما بعدها مثل ما قبلها أبدًا...

ويبدو أني مع موعد مع تلك اللحظة...

مرّت بي "ميمونة" تستأذن بالذهاب، فودعتها مؤكدة أني سأغلق المكان حينما أنتهي، كانت معتادة على بقائي أحيانًا، فانصرفت مطمئنة.

أغلقت الباب من خلفها، وعلى ضوء وحيد خافت حاولت التواصل مع الصفحة مرة أخرى المسؤل عن، (أنا شجن)

(أريد التواصل معكم)

بين كل رسالة والأخرى لحظات ترقب وأنفاس مغمورة بمشاعر كثيرة.

بقيت واقفة على حالي متجمدة في انتظار المفاجأة.

لكن بعد مرور عدة دقائق، بدأ يغزوني الحزن، لأقرر إغلاق المكان والعودة للمنزل.

فتحت الباب بمفتاحي حتى لا أقلق أمي، لكن فور دخولي لاحظت وجودها في انتظاري؛ جالسة بإرهاقٍ وعينين مغمضتين فتحتهما بتثاقل، قائلة بلوم؛ تأخرت "شجن" قلقت عليكِ!

يبدو أن ما كان يموج على وجهي أوحى لها كم الوضع خطير، إذا فتحت عينيها بانتباهٍ وقالت، يجب أن نتحدث، غيري ملابسك وسأعد شيئا خفيفا نأكله معا.

لم تنتظر ردي؛ بل انطلقت للمطبخ، حبيبتي يا أمي لا يفوتك شيء منّي مهما حاولت!

كنت مشتاقة للبوح بصراحةٍ، مشتاقةٍ لأشاركها أفكاري ومشاعري المتصارعة بلا توقف.

لم أكن لأوقظها وأنا أعرف كم هي متعبة، لكنها من طلبت الحديث، ولها كل كلمات الحكاية!

بعد دقائق كنا نجلس متجاورتين على الأريكة مع مسافة بسيطة بيننا لصينية صغيرة حملت شطائر عدة، يبدو أنها كانت جهزتها مسبقًا، ومشروب ساخن.

كان الوقت مثاليًا للفضفضة، فقلت مغمضة عيناي، لن تصدقي أبدًا يا أمي!

ثم انطلقتُ أحكي بانفعال رافعة ذراعي للأعلى، ترمقني عينيها الودودتين المبتسمتين بحب يشجع على كل أنواع الثرثرة..

تخيلي وجدتها!

قالت بشغفٍ للمصارحة: من هي؟

قلت ببطء مبهور: أمي التي كنا نبحث عنها في كل مكان.

اتسعت عينيها دهشة، وتركت الكوب من يديها قائلة بتحفز، أين؟ وكيف؟

ضحكت على انفعالها قائلة_ بسخرية مريرة نضحت على عيني بلمعة دامعة، وأنا أعبث بخصلاتي تهربا_ وجدتها لكنها إبرة في كوم قش!

تسللت من بين يداي ثانية.

اقتربتْ محتضنة خيبتي بين ذراعيها، ويبدو أن هذا هو ما كنت أحتاجه بشدة، لطالما كانت أمي هي منبع سعادتي ونهاية أحزاني المتعاقبة.

قالت ورأسها مستند على كتفي، ربما عليكِ قول التفاصيل شفقة بقلبي العجوز.

ضحكت وشر البلية ما يضحك، وحكيت لها الأمر كله؛ فاستضاء وجهها أملاً ثانية، وهي تشاهد الموقع على شاشة الجوال، هذا رائع..

ربما يردّون في الغد.

كان هذا الأمل الذي هدهدت أمي آلامي عليه، فاستكنت وذهبت لسريري منتظرة الغد وآمال الغد.

في الصباح قبل أن أفتح عيناي، كنت أتلمس الجوال لأتأكد هل وصل الرد.

كانت الإجابة لا لم تصل.

تعاقبت الأيام العشرة التالية، ثم اللذين يلونهم، وبضع أيامٍ أخرى، وتعاقبت الخيبات معها كل صباح.

جلست أمي ودكتور "عادل" معي قلقين من انتكاسة تحدث لي بسبب ذاك الأمر، فقال دكتور "عادل" بتعقل، أنت فتاة ناضجة يا "شجن"، مؤمنة بالقدر، أنا لست قلقًا أبدًا عليكِ.

أكملت أمي بحنان:

عليكِ أن تحمدي الله على هذا الأمل، الذي حُرم منه الكثيرون بوفاة أمهاتهن، ولعلّ الرد يكون قريبا.

تلا كلماتهم كثيرًا من الكلمات والتبريرات، محاولين تضميد روحي المتعبة.

وكانت طريقتي في التعامل مع الألم هذه المرة، هي المزيد من العمل في المكتبة، المزيد من الأنشطة والندوات بها، خصوصًا بعد عودة "إيناس" للمشاركة بالعمل معي، تاركة صغيرها في حضانة أمها بالصباح، مما زاد من الأنشطة المتاحة والزوار.

ثم القراءة، الكثير والكثير من إلتهام الصفحات، كان بالكتب شيئا يملء الفراغ المؤلم داخلي.

وكلما قرأت كتابًا وضعت على جانب غلافه علامة مميزة.

سألني عنها "سيف" يومًا، كان حاضرًا كعادته لترتيب بعض الأشياء، ثم قال بطريقته المعتادة ناظرًا أسفل قدميه، وهو يخاطبني متصفحا كتابًا بين يديه، على ماذا تدل هذه العلامة؟!

كان اصبعه يمر بالوشم الملون الذي أضفته للكتب التي قرأتها.

فقلت بلعثمه: هل وجوده مشكلة؟

هزَّرأسه مبتسمًا، أبدًا شكله يميز الكتاب، لكنني ظننته يعني لك شيئًا ما في أرشفة وترتيب الكتب؟!

قلت، كلا بل يعني فقط أنني قرأت هذا الكتاب.

ارتفع حاجباه دهشة مرددا بصوت خفيض، تبارك الله!

أين وجدت الوقت لقراءة كل هذا في بضعة أسابيع؟

تزاحمت الكلمات على لساني تود أن تحكي أنني أكلت الكتب؛ لأبني ذاتي كيلا يأكلني الألم!

لكنني أجبت مضللة كعادتي، كليتي نظرية، والكتب مفيدة، أليس كذلك؟!

كان العمل قد سار بشكل رائع خلال الشهر الماضي بالملجأ، كنت أمر كل يوم مع "إيناس" لنرى تطور العمل، وقد كانت النتائج مبهرة حقًا، جمال ذوق "إيناس" وتصميماتها، مع عناية "سيف" وصاحبة بالتفاصيل كلها، كل ذلك غيّر وجه المكان تماما.

وقفت مبهورة أراقب التشطيبات النهائية، و"ايناس" تملي بعض الملاحظات على المهندس ليلة إعادة افتتاح الملجأ بشكله الجديد، كانت أمي قد عزمت إقامة حفل كبير بهذه المناسبة نحتفل فيها أنا وأطفال الملجأ وكل من شارك في هذه النقلة، وبالطبع دكتورة "ألفت" ودكتور "عادل".

كنت مشتاقة للحفل كثيرًا، وأن يكون فاتحة خير وبداية أفضل للأطفال، وتذكيرا للجميع بحقهم على المجتمع.

كان "سيف" يرتب المكان بحماسٍ تساعده "ميمونة" وأنا، وكلما انتهينا من شيء ظهر المزيد من العمل، وما إن انتهينا من العمل حتى سقطنا متعبين على الكراسي المتناثرة.

بدأت "ميمونة" في مبادرة لطيفة بتوزيع عصائر حضّرتها كما أوصاها العم "فاضل"، وشطائر ساخنة.

قال "سيف" وهو يرقب الفارق الذي أحدثناه بالمكان بفخر، صراحة أنا مدين لكِ باعتذارٍ، كان تفكيرك صحيحًا، المكان صار مختلفًا جِدا!

ابتسامة خبيثة ظهرت على فم "إيناس" وهي تحاول مواراتها قائلة، الاعتراف بالذنب فضيلة!

كنت قد بدأت أشعر بالحرج، وأن هناك شيئا ما بالأجواء.

لمحت "إيناس" ذات مرة أنني كبرت وصرت عروسًا، وحين قلت لها أنني لا أفكر أبدًا بهذا حاليا، ضحكت معقبة أنه دلع وتدلل بنات وساعة القدر يعمى البصر.

وبعدها قال عم "فاضل" أنه يعتبرني ابنته، بل ويشرف أن أكون ابنته حقًا، وجزءًا من عائلته.

كنت غارقة بين صورتي التي يعرفها الناس، وواقعي الذي عشته، عجزت طوال عمري عن الحديث عن حياتي الخاصة بصراحةٍ، وتسبب ذلك دائما بكثيرٍ من الضغط عليّ، والكثير الكثير من المشكلات، لكنني اليوم كنت أمتلك خيوط حياتي أو معظمهما، واثقة أن كل ما مررت به، هو ما أدى لكوني ما أنا عليه اليوم، فلا شيء أخبئه، لذا قبل مزيد من المصارحات أوقفت الحوار قائلة بثقة، وأنا أتفحص المكان، ربما كانت أفكاري غريبة قبل أن تشاهدوها على أرض الواقع، لكنني كنت واثقة جدًا منها.

ارتفع دبيب قلبي حتى حسبته سيخرج من صدري معترضًا على معدل المخاطرة العالي الذي أنا في طريقي إليه، لكنني أكملت محافظة على مستوى صوتي المتزن.

لم أكن أنظر من موقعي بالطبقة المخملية، بل نظرت من موقعي، يوم كنت طفلة مقيمة هنا.

كأن أحدا ضغط زر إيقاف الصورة فقد تجمد الجميع في أماكنهم حتى أننا لو أسقطنا إبرة لسمعنا صوتها.

كان قلبي فقط هو صاحب الضجيج الوحيد.

تلته رنة على جهازي المحمول، فرفعته لعيناي متشاغلة عن الصامتون كأنني لم ألق قنبلة حالاً!

لكنه كان أكثر قسوة عليّ مما فعلت بهم، فقد تراصت الكلمات على شاشته قائلة:

"شجن"، حقا؟! أرجوك تواصلي معي على هذا الهاتف، لأتأكد أني لا أحلم!

لقطة (١٥)

بين السعادة والحزن خيط رقيق فاصل..

وكلاهما ينبع من داخلنا قبل أن يفيض على ما حولنا...

فقد تهيج أمواج حزننا، وكأن النفس غابت في غيابات الجبِّ، تتخبط بين ظلماته وتفيض منها على ما حوله فترى كل شيء شاحب باهت بلا مذاق ولا معنى!

وقد تخف روحنا وتسعد يوما فترى كل شيء حولك جميل لطيف تضحك لأقل سبب أو حتى بلا سبب ملموس!

كأنها أمواج من السعادة فاضت منك لك ولمن حولك...

الفصل الخامس عشر

رب صدفة...

كنت أتصنع الهرب للجوال من الموقف برمته، ولكن السحر انقلب على الساحر وقتما وجدت ردًا على رسالتي للصفحة باسمي مصحوبًا برقم هاتف، انتفضت واقفة، وضغطت الرقم بسرعة منتظرة الرد من الطرف الآخر بعد انتظار دام خمسة عشر عامًا، التفت لي إ"يناس" و"سيف" في تساؤل ملاحظين توتري الشديد، فنهضت "إيناس" واقفة بجانبي بمؤازرة وإن كانت لا تفهم ما يجري، وبدا على "سيف" التحفز.

كنت أسمع طنين على الطرف الآخر وينتفض داخلي مما هو آت..

لم تطل معاناتي إذ فُتح الخط أخيرًا وأجابت فتاة بتساؤل، "السلام عليكم" من معي؟

تجمدت مكاني أرتب الكلمات بتعثرٍ" وعليكم السلام ورحمة الله".

أنا "شجن" الجاري البحث عنها في صفحتكم على الشبكة العنكبوتية..

كان صوتها مختلفًا هذي المرة بين تشككها أنه شخص يمزح معها، وبين أمل تجلى بصوتها فأجابت باقتضاب، حقا؟!

فألقيت ما بجعبتي:

وجدت إعلانًا على صفحة مفقودين على مواقع التواصل، أشك أنه من صنع أمي.

انتفض "سيف" واقفًا بانفعال مجاورًا "إيناس" التي كانت تبثني دعما بقربها منّي، كان ظلهما يغمرني، وخلال لحظات ألقمتني المتصلة عنوانًا، أغلقت الخط عازمة على الذهاب فورًا، أصر "إيناس" و"سيف" على مرافقتي، فركبنا سيارة "سيف "ممسكين الطريق الطويل للعنوان الموصوف.

جلست "إيناس" ضامة جسدي المنتفض بين ذراعيها، قائلة، لِمَ تبكِ الآن؟

هذا أمر مفرح!

لم استطع شرح مشاعري المركّبة لكنني التمست جرأتي الملم شتات أفكاري المتعبة قائلة: هل تعتقدي ذلك؟

لم تزد إلا أن ضمت جسدي أكثر كأن الكلمات لا تكفي، فاسترسلت أهذي حائرة: هل سأندم على هذا اللقاء كما ندمت على لقاء أبي؟ هل سيكتب على روحي مزيد من الوجع؟

انهمرت دموعي كطوفان يغرقني أكثر:

توقعت أن لقاءهم سيلم شملي الذي تبعثر داخلي لسنوات، لكنني الآن وأنا على بعد خطوات من الحقيقة أشك في ذلك.

"سيف"

كانت تهذي بلا توقف، "شجن" التي لم تتحدث معي سوى مرات محدودة ومقتضبة في إطار العمل، لم تحكي أبدًا عن حياتها الشخصية، كانت تكب حر قلبها المختزن لسنوات طويلة، كانت انفعلاتها أحيانًا غير مبررة لي، تصرفاتها بعضها غريب بعض الشيء، كقطع أحجية لم استطع أبدًا فهم أجزائها، لكنني كنت متأكد أنها طيبة القلب كما يؤكد أبي، فتاة لا تتكرر كثيرًا، نعم كنت أفكر بالاقتراب أكثر وبشكل رسمي، يشجعني أبي و"إيناس" لتلك الخطوة التي طالما ترددت، وعزفت عنها بسبب غموضها ذلك.

اليوم تجمعت كل قطع الأحجية؛ تحكي رحلة وجع طويلة لم أتخيلها أبدًا.

تحكي لحظة نادرة نحن على مشارفها.

صففت السيارة ثم نزلت أتأكد من رقم المنزل بالعنوان، لأشير بعدها لـ"إيناس" أن هيا.

نزلت من السيارة تتوكأ على كتف "إيناس" كأن قدماها لم تعودا تحملانها أكثر.

طرقت الباب متوجسًا مما سيقابلنا بعد دقائق، وبمجرد ضغط إصبعي عن الزر وقبل أن أرفعه، فتُح الباب وكأن من خلفه فرغ صبره مثلي.

وخلف الباب كانت فتاة بعمر السبعة عشر عاما...

بعيون سمراء وبشرة خمرية لا تشبه "شجن" أبدًا.

خبى الضوء في عيني، كأنني كنت أبحث عن دليل يثبت أننا بالطريق الصحيح.

"شـجـن"

من خلال حديثها مع "سيف" الذي بالكاد أسمعه، فهمت أنها ترحّب بِنَا وتدعونا للدخول كانت تنظر لوجهي غير مصدقة، تتحدث معه وعيناها تراقب ملامحي طوال الوقت.

جلستُ، وجلستْ بجواري وقد طلبت من الخادمة إحضار شيئًا ما لنا.

ثم قالت بأحرف مبهورة: من أنتِ؟

كانت تعرف الإجابة، لكنها أرادت سماعها..

قلت ببساطة، كما يقول الجميع اسمه في سذاجة غريبة عليّ، "شجن".

حركت رأسها وكأنها لا تصدق، وقالت ببطء: نعم تبدين كأنك هي!

كنت أبتلع ريقي وأحاول السيطرة على مشاعري المبعثرة حتى قلت بعد طول تفكير: ومن أنتِ؟

قالت برقةٍ تناسبها، أنا "شروق".

ثم رفعت كتفيها وفتحت ذراعيها متمتمة، أختك!

اتسعت حدقتاي وأنا أفكر بألف فكرة!

كان "سيف" صامتًا مقطبًا حاجبيه مركزًا بصره علينا يحاول جمع الحقائق، تمسح "إيناس" دمعاتها المشفقة.

أكملت "شروق" مسترسلة وقد ظهرت غمزة غائرة في خدها حين ابتسمت، أختك غير الشقيقة إن كان هذا ما تسألين عنه!

حاولت التركيز لطرح السؤال الصحيح مال الجو كأنه خلا من الأكسجين؟!

شيئًا يطبق على صدري بثقله، فيصعب عليّ الأمر أكثر، وأين أمي؟

تشتت بصرها وقالت بعيون زائغة، ليست هنا حاليًا..

كانت "إيناس" تتصل على أمي "منال".

بينما قمت غاضبة من إجابات "شروق" الغامضة المبتورة التي لم أعد أتحملها وقلت لها، هل تعبثين معي؟

ماذا يثبت كلامك؟

هل عرفت قصتي من شخص ما فاستغللتها لازعاجي؟!

حاول "سيف" تهدئتي معتذرًا منها، لكن غابت بالداخل وكأن غضبي أفزعها وعادت بعد قليل تحمل طفلة نائمة على ذراعها، طفلة عمرها تقريبا أربع سنوات كعمري يوم تركني أبي...

اقتربت مني بصمت، والطفلة تتجلي ملامحها كلما اقتربت، كان وجيب قلبي يسمع من بعد أميال بعدما رأيتها عن قرب وقد وضعتها بين ذراعي كأنها أنا صغيرة نائمة!

إنها نسخة طبق الأصل لشعري الأحمر، ونقاط النمش، بوجهي وددت لو تصحو لأرى عيناي!

كنت أترنح بصدمة فدعمتني "إيناس" لأجلس، وقالت "شروق" أختك الصغري "شغف".

أكملت بضحكة باهتة، أصرت أمي على الحفاظ على حرف (الشين) يربط بيننا، كانت واثقة أنكِ ستعودين يومًا ما، قالت كثيرا أنها أخطأت يوم سمتك "شجن"، وكان لك من اسمك نصيب على ما يبدو!

فقررت أن تحتفظ بالشين مع كل اسم لنا على أن يكون معنى الاسم مبشرًا!

ابتسمتُ وقد غامت عيناي، تململت الصغيرة بين ذراعاي، وفتحت عينها بصعوبة من الضوء الغامر حولها تلفظ اسمها بعفوية وتتلمسني تعتقدني هي، "شروق" أنا جائعة!

مدت كفها الصغير تدعك عينها ببراءة، وأنا أناظرها مبهورة بعينها!

وفور ما فتحتهما حملقت بي متعجبة ومدت كفها الصغير تتلمسني بانبهار، هاتفة بصوت متكسر: م..ا ما؟

نزلت دموعي وأنا لا أحري جوابًا ولكن "شروق" أسرعت تأخذها قائلة: تشبهين أمي كثيرًا كما تشبهكما "شغف" أنا الوحيدة حملت ملامح أبي.

أسرعت الخادمة تأخذ شغف الباكية للداخل تهدئها بأمر من "شروق" وأنا أشتم رائحة فاجعة، تطبق على صدري أكثر، وأكثر...

فتكلمت كمن يتمنى وقوع البلاء ولا انتظاره، وسألت "شروق" مباشرة بصوت أجش، أين أمي؟

بدا جسدها ينتفض انتفاضات بسيطة وأطلت دمعاتها وكلماتها كأنها مصرة على سرد الماضي كله أولا:

بحثت عنك دائمًا، فقدتك طوال الوقت، كان الإعلان على صفحة المفقودين فكرتي، كانت تراقبها يوميًا انتظاراً لظهورك قلت: ثم؟

سحبت نفسًا طويلاً وعيناها تحملان الكثير من الكلام، لتخبرني بعدها بالحقيقة التي لا مفر منها!

لقطة (١٦)

لكل قصة نهاية، تحمل عبرة، حكمة والكثير من دروس الحياة..

يحكيها صاحبها مسترجعًا مشاعره في كل جزء منها..

فتفيض دمعاته حينًا تأثرًا، وتشرق ملامحه حينًا آخر ملتمعة عيناه بالفرحة، وحياتنا حكاية من الحكايا...

تحمل من الحلو والمر مزيجًا بطعم الواقع، والمهم أن نملك الذكاء الكافي للتعلم من كل درس مررنا به...

الفصل السادس عشر

اكتمال

كانت تقولها بحزنٍ سكن عينيها، أمي ترقد بالمشفى، أثر حزنها الطويل على قلبها، فأضعفه، كان ضعفها يزداد يوما بعد يوم، حتى صارت أضعف من أن تكون في المنزل، وكأنها استسلمت.

كنت أبكي بحرقة من وصل المرفأ، بعدما انصرفت بالكاد السفينة الأخيرة وفرصة نجاته الوحيدة، كانت دقات جوالي تتعالى لكنني لم أعبء بأي شيء.

سحبته "إيناس" برفقٍ: بدا من كلماتها أنها أمي وأنها بالطريق.

كان الجميع حولي أمي و"إيناس" ودكتور "عادل" برحلةٍ إلى المشفى، لكنني كنت أستشعر وحدة شديدة كأول ساعاتي في الملجأ تائهة تمامًا.

كتفّت ذراعي حول جسدي أنشد دفئًا فطوّقتني أمي تقرأ أيات القران وتمسح بكفها الآخر على رأسي بحب.

تتمسك "إيناس" بكفي.

ويحاول دكتور "عادل" الموازنة بين الطريق وبين كلمات الأمل يسكبها في أذني سكبًا أنني قوية، وأن كل شيء سيكون بخير.

"عادل"

كل شيء حدث فجأة كسقوط شيء بسيط من كومة أشياءٍ، لم نعبأ به لكنه أدى لتتابع الأشياء الساقطة، حتى انهار كل شيء، وصرنا في وسط فوضى نرقب ما حولنا مشدوهين!

منذ ركبنا السيارة و"شجن" وجهها وتلعثمها يحملان ترددًا معجونًا بالقلق وبعض الخجل، كنت أشفق على طفولتها المهدورة وشبابها المدفون بين ركام الماضي قررت الذهاب معها لتكمل قطع رحلتها المؤلمة في البحث عن الماضي، ربما تستطيع بعدها إعطاء فرصة لجراحها أن تُشفى!

ذهبنا سويًا وأنا أحاول التسرية عنها، وفي ذهني مليون تخيل لمشهد رؤيتها لأمها ولقاء بعد سنواتٍ طوال يرجني سؤال واحد هل ستتحمل؟ هل ستنهار؟

ولَم يكن مشهد لقائها بأبيها مشجعًا فقد كانت ترتجف هي وأمها على حد السواء، مما جعلني أتساءل كيف عاشتا وحدهما ما يزيد عن العقد رغم هشاشتهما تلك؟!

لكني بعد وصولنا أفقت على الكارثة الأكبر، كان الأمر خارجًا عن كل توقعاتي إلى بُعد مأسوي آخر!

بعد وصولنا المشفى والهرولة للغرفة الموضوع بها أمها تفاجأنا أنها نقلت للعناية المشددة لحالتها الخطرة.

انهارت أمامي وقد حقَّ لها هذا وتقفتها يدي "منال" تحاول أن تهديء من روعها.

كنت أحاول مساعدتها على تجاوز تلك الهزة العنيفة، دون آثار أسوأ قد تدمرها، طلبت من إدارة المشفى السماح لها برؤيتها للحظات، حتى وبعد حكاية قصتها الطويلة سمح لها بلحظاتٍ قليلة، وقفتُ أراقبها أنا و"منال" من خلف الزجاج تمشي خطواتها للسرير الأبيض المسجى، جسد أمها فوقه، بصعوبة تلتفت لنا كل بضع خطواتٍ تشجعها نظراتنا على المضي للأمام.

وصلت للسرير ووقفت تتأمل كل ملامحها للحظات طالت، ثم انهارت فجأة بجانب السرير ممسكة كفها وكأنها طوق نجاة ظهر بعد فقدان الأمل، كاتمة بكفها الآخر شهقاتها.

كان صوت الأجهزة الرتيب من حولها يزيد من ثقل الموقف، بدأت شفتاها تتحركان بالكلمات، تُرى ماذا كانت تقول؟

ضيقت عيناي محاولا التركيز متسائلاً.

استمرت "شجن" تتكلم وترسم السعادة على وجهها رافضة دموعها المنسابة ماسحة إيّاها بعنفٍ كلما سالت.

ربما حكت كل ما جرى لها، ربما كلمتها عن "منال" وعن حياتهم سويًا، لا أحد يعرف، لكنها بالنهاية صمتت مقّبلة كفّها وجبينها بشوقٍ سنواتٍ عجافٍ، وانسحبت من الغرفة وعيناها تعانقان الجسد المسجى على السرير.

زفرت أحاول الخروج من حدود قصة استهلكت يومي كله، وطاقتي حتى آخر ذرة، وها أنا أعدتهما لمنزلهما تقتلني نظرات الضياع بعينهما، على وعدٍ بالعودة غدٍا لإعادة المحاولة المبتورة.

أغلقت باب بيتهم خلفي، محاولاً ملء رئتي ببعض الهواء في الخارج علّه يمدني بالطاقة، ولكن عقلي وقلبي ظلّا معهما بالداخل، وفور خروجي من المنزل..

لمحت ظِلاً قابعًا على الرصيف المقابل..

كان شيئا غريباً بقاء أحد في هذا البرد في هذا الوقت المتأخر فتوجست وحاولت التحرك بحذر، لكنه انتفض واقفًا فور رؤيتي، فأبصرت ملامح وجهه على ضوء مصباح الشارع الخافت، كان القلق قد اتخذ من وجهه مسرحًا، وقفتُ منتظرًا من أين يبدأ وفي الحقيقة هو لم يتأخر حيث اندفع بحرارة دماء الشباب، ماذا جرى "لشجن"؟

تذوقت اهتمامه التي بدت جلية لرجل مثلي بصوته، فقلت وعيناي مثبتتان عليه تنتظر رد فعله، ستكون بخير شكرًا لمساندتك لها اليوم.

ارتبكت حركات جسده قليلاً، ثم قال بصوتٍ صادقٍ، أردت أن أطمئن فقط.

لم يكن لدي ما يطمئنه فالفتاه تركتها حطام بالأعلى!

لكنني قلت أبثّ فيه الطمأنينة، إنها تمر بحالة صدمة، تحتاج بعض الأدوية البسيطة حتى تمر من الأزمة بخيرٍ بإذن الله.

حك شعر رأسه بانزعاج متمتمًا: نعم فهمت، ثم قال بتردد يدفعه قلقه..

ولكن هل ستكون بخير؟

لم أكن أعرف لأي حد يعرف هو عنهم فقلت مقتضبًا، ستكون بخيرٍ إن شاء الله.

ثم أكملتُ واضعًا كفي بجيبي بنطالي، مع عدم قدرتي على تجاهل الأمر أكثر؛ أراك مهتم كثيرًا.

لم يخف "سيف" اهتمامه بل اندفع يشرح أنه يعتبر الدكتورة و"شجن" مسؤوليته الشخصية كونهن وحيدات، ربما لم يقترب منهن من قبل لأنهن لم يحتجن ذلك لكن الوضع الآن يقلقه.

شيء من الشهامة والرجولة الصادقة كان ظاهًرا في صوته، طمأنني أن هناك خيرًا في داخل هذا الشاب الصغير فصافحته مودعًا على وعد بالتواصل.

"شـجـن"

نمتُ كمن لم ينم من قبل، بدا هذا تأثير الدواء الذي أصرت أمي أن أتناوله.

وبمجرد استيقاظي كنت في طريقي للمشفى مرة أخرى، أنا وأمي ودكتور "عادل" الذي أصرّ على اصطحابنا بنفسه و"إيناس".

وفور وصولنا وجدنا "شروق" وأبيها أمام باب غرفة أمي، كان واضحًا أنها تحسنت وعادت لغرفتها، كان وجه "شروق" أفضل، نظرت لعيني بأملٍ قائلة: ستطيب إن رأتكِ أنا متأكدة.

كانت عيون الجميع تشجعني للدخول، منتظرين بالخارج تاركين لي وحدي زخم اللقاء الأول.

فتحت الباب وأنا أشعر أنه ثقيل كباب قلعة قديمة، وخطوت للداخل بخطوات مهتزة، رأيت جسده ممدد على السرير تتصل به الكثير من الأسلاك.

لم تكن تدري بدخولي فاقتربت أنظر لها عن قرب، ارتفع كفاي لفمي كاتمة شهقاتي الخافتة، كم كانت تشبهني، تجول عيناي على ملامحها وتجاعيد وجهها بشوقِ سنواتٍ عجافٍ، ماذا يمكن أن يقول المرء بعد غياب خمسة عشر عامًا.

لا أدري!

لكنها تحركت بوهن تحاول استكشاف من القادم، فاقتربت أكثر لتبصرني عينها، حاولت النهوض لكنها لم تستطع، فارتميت بين أحضانها كاشفة هويتي، لم أستطع مواصلة الكلام بعدها من بكائها ونحيبها، تضمني حتى أحسستُ أن جسدينا يمتزجان كجسدٍ واحدٍ.

بعد برهة جلست بجوارها ومازال كفها متشبثين بي قائلة، في محاولة لرسم البهجة على وجهها الذي أيقنت أنه يحمل أضعاف ألمي: لقد عدت!

كانت تتلمسني وتشمني، ثم تحتضنني، لتعاود الكرّة مراتٍ ومراتٍ بلا توقف، حتى أنني خشيت عليها، لم أقابلها لنفترق مرة أخرى فصرت أردد بهلعٍ، أمي أنا بخير، أنا "شجن"، أرجوك كوني بخير لأجلي.

صارت تهز رأسها بتأكيدٍ متتابع من بين شهقاتها، تحاول أن تخبرني أنها بخير.

فتح الباب ليحيطنا الجمع من أهلينا، في مشهد لا يوازي أكثر مشاهد الأفلام جموحًا وخيالًا.

جلست أمي "منال" تحادثها بكل ما جرى، من يوم افترقت عنها، تتعاقب على وجه أمي مشاعر الحزن والشفقة ثم السعادة، لأنني وجدت بطريقي أمي "منال" لتنقذني من مصيرٍ مؤلم.

لم أكن أود أن أنصرف أبدًا، لا أكتفي من تأملها والقرب منها، راوية ظمأ سنوات طوال، لكن عينها كانتا تعانقان عينا أمي "منال" بشكرٍ لا حدود له، تقابلها عينا أمي "منال" بتفهم، لم يسمح لنا لطبيب إلا بتلك

الدقائق حرصًا ألا تنفعل أكثر، ومع إخباره بخطوط الحكاية، سمح لي بزيارتها دقائق يوميًا، علّ ذلك يساعدها.

خرجنا من عندها ونحن نعلم أن حفل افتتاح الدار في انتظارنا بعد ساعات، ولا يمكن تأجيله، وكان "سيف" قد سبقنا لينجز كل الأعمال لحين عودتنا.

كنت كالخارج من حلم، بين الواقع والخيال أسبح، سعيدة جدًا بإنجاز الدار على خير ما تمنيت، سعيدة بالتفاف الأهل حولي.

أمي و"عادل" وأولاده، دكتورة "ألفت" وأطفالها، عم "فاضل" و"إيناس" و"سيف"، "شروق" و"شغف" و"والدهم".

كل من كان وجودهم يمثل اكتمال حياتي أخيرًا.

كان احتفالاً مذهلاً بفرحة الصغار التي تمحو أي وجع وألم، أكملته بإعلان ارتداء الحجاب.

لتحتضنني البنات بحب، مهنئات ليكون الفرح فرحين.

وقفت أمي بجواري قائلة بفخر: أراك تتألقين أخيرا بالسعادة، جمع قلبك شتاته يا حبيبتي.

جمعنا عناق طويل يحكي راحة انتظرناها كثيرًا، واكتملتُ يوم وجدت كل أهلي.

على سيرة الأفراح..

بعد مرور ستة أشهر..

أخيرًا انتهى إعداد المنزل وقد استغرق شهور الإجازة كلها، ولَم يبق إلا أسبوعين على العام الدراسي الجديد.

أخذنا ما يمكن الاستفادة منه من أثاث البيتين، بيتنا وبيت دكتور "عادل"، فقد كان يعز علينا فراقهم مع تغيير بعض الألوان وعمل اللازم ليبدو جديدًا، وأضفنا قطع جديدة كان دكتور "عادل" يصر أن نذهب لنختارها جميعا سويًا.

كان يؤسس مكانًا هو بيتنا جميعًا بمعنى البيت والأسرة، وليس فقط مكان للمبيت، جلسنا أخيرا مجتمعين على طاولة الطعام، أسرة مكتملة أخيرًا بأم وأب وثلاثة أطفال؛ ننسج اكتمالاً عانى كل منّا من نقصه كثيرًا.

كانت العيون كلها تتلاق بسعادةٍ غمرتنا كحلم جميل بعد كوابيس طويلة مررنا بها.

وفي مقابل جلستنا كان حائط الأحبة يحمل كل الأجزاء التي فقدناها من أسرنا السابقة، وتمتلئ قلوبنا لهم بالمحبة؛ أمي وأخواتي وأم طفلي "عادل" وجدتي، والكثير من الصور العائلية.

كنت أحظى مؤخرًا بصحبة عائلية دافئة أقضي وقتا أسبوعيا مع أخواتي، وأمرُّ بأمي التي تحسنت كثيرًا، يوميًا لبعض الوقت حسبما يسمح الطبيب، أثرثر عن كل ما مرّ وكل ما أحلم به، عن ما أتمنى أن نفعله معًا،

وهي تستمع فقط مع بعض إيماءات هي أقصى ما سمح به وهنها، لكنها كانت تعني لي الكثير.

رنة على هاتفي جعلتني أستأذنهم لإجراء مكالمة، كانت "إيناس" تتعجل قراري قائلة بمزاح وفخر مصطنع، لا أعتقد أن أخي "سيف" عريس يُرفض.

ضحكة صافية تشاركتها كلانا، تحكي أننا قريبًا قد نتشارك أكثر من ذلك بكثير.

تمت بحمد الله

غادة أكرم

✍ اترك لي انطباعك. وما هو رأيك؟

_____

_____

_____

_____

_____

_____

_____

_____

_____

_____

_____

_____

توقيع/ _____